يصدرها حلمي مراد

مطبوعات كتابي



النصّ الكامل لقصّة "إميلي برونتي" الخالدة

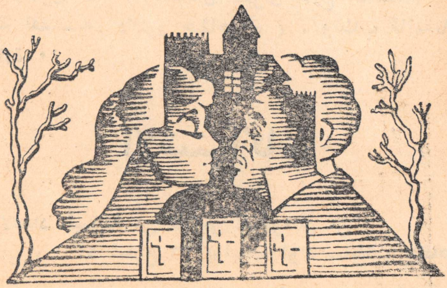
مرتفعات ويذرنج

الجزء الثالث والأخير

إميلي برونتي

مرتفعات ويذرنج

الجزء الثالث



WUTHERING HEIGHTS

By

EMILY BRONTË

الثمن ١٢ قرشا

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الان ستة وثمانون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد فى اول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها خمسون كتابا (ومجلدان كبيران خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو ») ، وتطلب قائمة بأسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

◆ تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الأخرى والبلاد الأجنبية فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل .

ولمن شاء ان ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، ان يدفع فرق الرسوم .

◆ ترسل قيمة الأعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى ان يرسلوا القيمة بشيك على أحد بنوك القاهرة ، او تحويلات مصرفية ، او كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، على ان يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بأن سعرها فى مصر ٣٧ مليما . ومن الممكن لمن فى السودان ان يرسل القيمة بحوالة بريدية .

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

الكتاب الحادى والخمسون

مرتفعات ويذرنج

(الجزء الثالث)

نقلها الى العربية

شمس الدين الغريانى

الادارة : عمارة الجندول – ١٤ شارع ٢٦ يوليو – بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

ملخص الجزءين الأول والثانى

عندما توفى « ايرنشو » ـ صاحب دار « مرتفعات ويذرنج » ـ خلف وراءه ولدا متلافا ، هو « هندلى » ، وابنة عنيدة ، خشنة متمردة ، هى « كاثرين » ، و .. ولدا من أصل مجهول ، التقطه من رحلة له الى (ليفربول) ، ويغلب على الظن انه غجرى ، هو « هيثكليف » ، وقد جمع العنف والخشونة بين كاثرين وهيثكليف ، ولكن « هندلى » حرص على التفرقة بينهما ، وعلى محاولة ترويض كاثرين واذلال هيثكليف ! .. ولم تلبث الفتاة ان تعرفت الى « ادجار لينتون » ـ ابن صاحب الضيعة القريبة « الجرانج » ـ فبهرها منه جمال شكله ، ورقة طباعه ، ولم تلبث ان تزوجت منه بالرغم من انها كانت تزدرى ضعفه ونعومته بالنسبة لغلظة « هيثكليف » وخشونته ..

ونقم هيثكليف عليها هذا الزواج ، كما حقد على أخيها امعانه فى اذلاله، فلم يلبث ان اختفى من (مرتفعات ويذرنج)، ليظهر بعد سنوات وقد أصاب قسطا من الغنى جعل « هندلى » يستضيفه فى داره .. واستغل الخبيث تردى ابن ولى نعمته فى المقامرة ، وادمانه الشراب ، فراح يعمل على تحطيمه، وعلى اخضاعه لسلطانه ـ بفضل ماكان يقرضه من مال يقامر به ـ وعلى افساد ابنه « هيرتون » عليه ، وتنشئته على ما نشأ هو عليه من خشونة ، وضراوة ، وجهل هو أقرب الى الأمية .. وفى الوقت ذاته ، راح هيثكليف يسعى لارضاء حقده على غريمه الذى ظفر بكاثرين ـ «ادجار لينتون » ـ ، متوسلا بقوة تأثيره عليها .. وهكذا تسبب فى أزمة عصفت بما كان بين الزوجين من وئام .. ثم استغل

الهوى الصبيانى الذى تملك أخت ادجار ـ « ايزأبيلا » ـ نحوه فعمل على تنميته ، بغية مصاهرة غريمه الارستقراطى، ورغبة فى أن يرث أملاكه بعده ! .. واذ اكتشفت كاثرين الأمر ، عنفت فى تأنيب هيثكليف ، وطرده « أدجار » .

وأثار تدخل ادجار ثائرة كاثرين ، فتصنعت الاصابة بنوبة صرع . ثم جن جنونها اذ لم يأبه زوجها بها ، فأصابها نوع من الخبل و الهذيان ، وعرضت نفسها للبرد القاسى ، فأصيبت بحمى عنيفة .. وفى غمرة المرض الفتاك ، ولوعة ادجار على زوجته ، أغرى هيثكليف « ايزابيلا » بالفرارمعه، وتزوجها ـ عن غير حب ـ ثم عاد بها الى مرتفعات ويذرنج ، حيث راح يسومها العذاب ، امعانا فى الانتقام من أخيها !

ولم يكتف الوغد بذلك ، بل حرص على أن يتسلل الى (الجرانج) ، وأن يلقى كاثرين ، يتنازعه الحب لها ، والحقد عليها لأنها احتقرته وتزوجت غريمه الغنى .. وعلى اثر مشهد عنيف بينهما أثناء مرضها ، أغمى على كاثرين !.. وفى المساء ذاته ، وضعت طفلة ، حملت نفس اسمها « كاثرين » ، ثم ماتت ! .. وكانت الصدمة قاسية على « أدجار » فاعتزل الناس أجمعين ، وكرس حياته لطفلته .. ولم تزد هذه الصدمة هيثكليف الا أمعانا فى حقده عليه ، وفى بطشه بايزابيلا حتى اضطرت المسكينة الى الفرار منه الى ركن مغمور من لندن ، حيث وضعت طفلا أسمته « لينتون » ..

ثم مات « هندلى » من تأثير افراطه فى الخمر ، فاستولى الوغد الوضيع على مرتفعات ويذرنج ، وعلى « هيرتون » ـ ابن غريمه ـ لينشئه جلفا ، فظا ، عنيفا مثله ..

وكانت « كاثرين » الصغيرة قد كبرت ، فى رعاية أبيها ومربيتها مسز « أيلين دين » ـ راوية القصة ـ دون أن ترى العالم خارج أسوار دارها ـ « الجرانج » ـ الا فى صحبة

أبيها .. وعندما بلغت الثالثة عشرة ، تلقى ابوها من اخته « ايزابيلا » رسالة تستحلفه فيها أن يخف الى جوارها وهى تحتضر ، فسافر .. وفى غيابه ، شقت « كاثى » عصا الطاعة على مربيتها ، وانطلقت على جوادها على غير هدى ، فاذا القدر يسوقها الى (المرتفعات) ، حيث أبدى لها هيثكليف تلطفا جعلها تخدع فى حقيقته .. وحيث استهجنت هوان حال « هيرتون » وفظاظته ، دون أن تدرى انه ابن خالها !

وأقبل « لينتون » مع خاله - الذى اعتزم أن يكفله - فاذا به ضعيف ، هياب ، حائر ، كثير البكاء .. على انه كان جميلا برغم ذلك ، وقد اجتذب « كاثى » بحاله هذه . ولكن اباه « هيثكليف » لم يكد يعلم بوصوله ، حتى أصر على أنه أولى بكفالته ، واستطاع أن يأخذه من خاله .. وكأنما كان هذا طمعا لاستدراج « كاثى » الى مرتفعات ويذرنج ، ولتحويل عطفها على الفتى الى حب .. فلما فطنت المربية ، حالت بين الفتاة وبين مراسلة « لينتون » أو زيارة مرتفعات ويذرنج . وساعدها على ذلك ان « ادجار » كان قد أصيب بمرض خطير ، يخشى منه عليه اذا هو عرف الأمر .

ولكن هيثكليف فاجأ الفتاة يوما - وهى مع مربيتها خارج الدار - وأنبأها بأن حزن « لينتون » لانقطاع صلته بها قد أسلمه الى مرض يوشك أن يقضى عليه .. وهدد ، وانذر .. ثم قال انه سيغيب عن داره أسبوعا ، وفى وسع الفتاة أن تتأكد خلال ذلك من صدق قوله ..

وفى الصباح التالى ، انطلقت الفتاة مع مربيتها الى مرتفعات ويذرنج ، لترى ما اذا كان لينتون مريضا حقا !

والآن .. تستطيع أن تستأنف القصة :

الفصل الثالث والعشرون

أسفرت الليلة المطيرة عن صباح تحجب ضياءه غلالة من الضباب الرطيب ، كان بعضه من ندف الثلج السابحة فى الهواء ، وبعضه الآخر من رذاذ خفيف من قطرات المطر المعلقة فى الفضاء .. وكانت جداول الماء تنساب من أعلى التلال ، فى قرقرة خافتة ، فتقطع طريقنا بين وقت وآخر .. وأصاب البلل قدمى ، فزاد من حنقى وضيق صدرى ، وجعلنى فى تلك الحالة من السخط التى تلازمنا عندما نقدم على صنع شىء لا تهش له نفوسنا ..

وجعلت دخولنا الى « المرتفعات » عن طريق المطبخ ، حتى استوثق من غياب مستر هيثكليف حقا ، اذ كنت قليلة الثقة بما يقوله ويؤكده ! .. ووجدت جوزيف ، وقد بدا كأنه ينعم وحده بجنة لايشاركه فيها أحد ، جالسا بجوار موقد احتدم أواره ، وعلى المائدة القريبة منه قدح مثل الدلو ملىء بالجعة ، رصت حوله قطع كبيرة من فطير الشوفان المقدد ، وقد وضع غليونه الأسود القصير فى ركن فمه .. وهرعت كاثرين الى الموقد تستدفىء بناره المستعرة ، بينما كنت أسأله ان كان السيد داخل الدار .. ولقد ظل سؤالى بلا جواب فترة طويلة ، حتى خلت ان العجوز قد أصابه الصمم ، فأعدت عليه السؤال بصوت اشد ارتفاعا ..

فانبعث يزمجر ، أو الأحرى انه كان يصرخ من أنفه :

ـ كلا .. كلا .. وما عليكما الا أن تعودا من حيث اتيتما !

وكدت اهم بالرد عليه عندما صاح صوت حانق من الحجرة الداخلية :

ـ جوزيف ! .. كم مرة ينبغى لى أن اناديك ؟ .. لم يبق فى المدفأة الا جمرات قليلة يكسوها الرماد الآن .. جوزيف ! .. تعال فى الحال !

ولكن أنفاس الغليون القوية المتلاحقة ، وتلك النظرة الساهمة نحو الموقد ، كانت تنبىء بانه لا يعير هذا النداء أذنا صاغية .. وكانت مدبرة المنزل وهيرتون مختفيين عن الأنظار ، ولعل الأولى خرجت فى جولة لتبتضع ، وانصرف الثانى الى عمله فى الحقول .. وعرفنا صوت لينتون ، فدخلنا اليه .. وكان ، عندما سمع وقع خطانا ، قد حسبنا خادمه الذى يهمله ولا يعنى به ، فصاح قائلا :

ـ آه ! .. كم أتمنى ان تهلك جوعا فى سجن سحيق !

فلما تبين خطأه ، سكت فجأة ، بينما اندفعت بنت خاله نحوه كالطير الحبيس يطلق من عقاله .. فرفع رأسه عن مسند المقعد الكبير الذى كان مضطجعا فيه ، وقال :

ـ أهذه أنت يامس لينتون ؟.. كلا .. كلا .. لا تقبلينى ، فان ذلك يقطع انفاسى ويجعلنى ألهث كالمخنوق !

فلما أفاق قليلا مما غشيه من عناق كاثرين ، التى وقفت جانبا وقد بدت عليها خيبة الأمل ، استطرد يقول :

ـ يا الهى ! .. لقد قال لى أبى انك قد تحضرين لزيارتى ، وها قد صح حدسه .. هل لك أن تتكرمى باغلاق الباب ؟.. لقد تركته مفتوحا وراءك ، كما أن هؤلاء .. هؤلاء المناكيد لا يريدون احضار الفحم للمدفأة ! .. آه ! .. ما أشد البرد الآن !

فأخذت احرك الرماد واحضرت بنفسى ملء دلو من فحم غذيت به النار .. فراح العليل يشكو ويتذمر من تطاير بعض الرماد عليه ، ولكنه لم يلبث أن فاجأته نوبة من السعال

الأليم اسكتته .. وكان يبدو سقيما محموما مما جعلنى أغضى عن سوء خلقه ..

فلما انتهى سعاله ، وانفرجت اساريره ، غمغمت كاثرين قائلة :

ــ حسنا يا لينتون .. هل سرتك رؤيتى ؟.. وهل بوسعى أن اكون ذات نفع لك ؟

ــ لماذا لم تحضرى قبل الآن ؟ .. كان الأولى بك أن تأتى بنفسك بدلا من الكتابة لى ، فان تلك الخطابات الطويلة ارهقتنى ارهاقا مروعا ! .. وكنت افضل لو تحدثت اليك بدلا من تدبيجها .. أما الآن فلم أعد احتمل الكلام ولا اى شىء آخر ! .. ترى اين زيللا ؟

ثم التفت نحوى ، واستطرد يقول :

ــ هل لك أن تذهبى الى المطبخ لترى اين هى ؟

ولم اكن قد تلقيت منه لفتة او كلمة شكر على خدمتى الأخرى بتزويد المدفأة بالفحم ، واذ كنت غير راغبة فى الذهاب الى هنا والى هناك تنفيذا لمشيئته ، فقد اكتفيت بأن أجبته : « ما من احد هناك سوى جوزيف »

فأشاح بوجهه عنى ، وهو يقول فى ضيق وتبرم :

ــ اريد جرعة من الماء .. وقد اعتادت زيللا ان تهيم على وجهها الى جيمرتون منذ أن غاب ابى ، وتركنى اعانى هذا الشقاء .. لقد اضطررت الى النزول الى هنا ، فقد اصروا على تجاهل ندائى كلما بقيت فى الطابق العلوى ..

واذ رأيت كاثرين قد صدت فى محاولاتها الودية للتقرب اليه ، سألته :

ــ هل تجد من أبيك رعاية كافية يا سيد لينتون ؟

ــ رعاية كافية ؟.. انه على الأقل ، يجعل الآخرين يولوننى

شيئا من الرعاية فى حضوره .. ولكن يا لهم من اوغاد اشقياء ! .. هل تعرفين يا مس لينتون ان ذلك الوحش هيرتون يضحك منى ساخرا ؟ .. اننى اكرهه .. بل اننى فى الواقع أكرههم جميعا .. فانهم ثلة من المخلوقات البغيضة الممقوتة !

وبدأت كاثى تبحث فى الحجرة عن بعض الماء لتسقيه ، حتى عثرت على ابريق فوق الخوان، فملأت منه كوبا وأحضرتها اليه .. ولكنه طلب اليها ان تضيف اليه ملء ملعقة من النبيذ من زجاجة موضوعة فوق المائدة .. ثم جرع رشفة صغيرة ، بدا بعدها أشد راحة واكثر هدوءا ، وقال انها رحيمة رقيقة الشعور ..

وسرها ان تلمح على شفتيه اشراق فجر ابتسامة ، فعادت تكرر سؤالها الأول :

ـ وهل أنت مسرور لرؤيتى ؟

ـ نعم .. اننى كذلك حقا .. فان سماع صوت كصوتك أمر جديد على .. ولكن امتناعك عن الحضور سبب لى كثيرا من اللوم والايلام ، فقد اقسم ابى اننى المسئول عن ذلك ، وكان يصفنى بأننى « شىء تافه خائر النفس يدعو الى الرثاء » ! .. ويقول انك تحتقرينني ، وانه لو كان فى محلى لكان قد أصبح الآن سيد « الجرانج » اكثر من ابيك .. ولكنك لا تحتقرينني ، أليس كذلك يا مس ..

فقاطعته سيدتى الصغيرة قائلة :

ـ بودى ان تقول كاثرين او كاثى .. انا احتقرك ؟ .. كلا .. كلا .. انك احب الناس الى نفسى بعد أبى وايلين ! .. ومع ذلك فانى لا احب مستر هيثكليف ، ولن اجرؤ على الحضور الى هنا بعد عودته .. فهل سيغيب اياما عديدة ؟

ـ لن يطول غيابه كثيرا .. ولكنه يكثر من الذهاب الى البرارى منذ ان بدأ موسم الصيد ، وسيكون فى وسعك ان تقضى معى ساعة او اثنتين فى غيبته .. قولى انك ستفعلين، واحسبنى لن اكون نكدا مشاكسا معك ، لأنك لا تثيرين غضبى، بل تبدين دائما راغبة فى مساعدتى .. هل ستحضرين؟

فأجابت وهى تربت على شعره الطويل الناعم :

ـ نعم .. اذا استطعت فقط ان انال موافقة ابى .. عندئذ سوف أقضى نصف وقتى معك يا لينتون الجميل .. شد ما وددت لو انك كنت اخى !

فأجاب فى لهجة مرحة طروب :

ـ فى تلك الحالة سوف تحبيننى كما تحبين أباك .. ولكن ابى يقول انك سوف تحبيننى اكثر منه ومن اى انسان فى العالم ، اذا ما كنت زوجتى .. لذلك أفضل لو كنت زوجة لى !

فقالت فى رصانة :

ـ كلا .. لن احب احدا قط أكثر مما احب ابى ! .. ثم ان الناس يكرهون زوجاتهم احيانا ، ولكنهم لا يكرهون اخوتهم واخواتهم .. ولو كنت اخى لأقمت معنا ، ولأحبك أبى وتعلق بك مثلما يحبنى ويتعلق بى ..

فأنكر لينتون ان الناس يكرهون زوجاتهم قط ، ولكن كاثى عادت تؤكد انهم يفعلون ، وتدفقت الحكمة من فمها عندما ضربت مثلا لذلك كراهية أبيه نفسه لعمتها .. وحاولت ان اتدخل لأكبح زمام لسانها الطائش ، ولكنى لم افلح فى ذلك حتى كانت قد اخرجت من جوفها كل ما تعرفه .. فصاح لينتون ، وقد استبد به الضيق ، يؤكد ان قصتها كاذبة ..

فقالت كاثرين فى صراحة اشبه بالقحة :

ـ لقد اخبرنى ابى بذلك .. وابى لا يكذب قط ..
فصاح لينتون :

ـ ان ابى يزدرى اباك ويحتقره ، ويسميه المغفل الخسيس !
فردت عليه كاثرين :
ـ ان اباك رجل شرير ، وانت اشد شرا منه اذ تردد ما يقوله .. ولا بد انه بلغ غاية الشر حتى دفع عمتى ايزابيلا الى هجره كما فعلت !

ـ انها لم تهجره .. فلا تعارضينى !
فصرخت سيدتى الصغيرة :
ـ بل هجرته فعلا ..
عندئذ قال لينتون :

ـ حسنا .. سوف أخبرك انت بشىء يهمك .. لقد كانت امك تكره اباك ، فما رأيك ؟
فشهقت كاثرين ، واخرسها الغضب عن النطق الا بكلمة : « أوه ! .. » فاستطرد يقول :

ـ وكانت تحب ابى !
فتلاحقت أنفاسها وتورد وجهها بحمرة الغضب والانفعال ، ثم صاحت :

ـ ايها الكاذب الصغير ، اننى اكرهك الآن !

ولكن لينتون غاص فى مقعده ، واسند رأسه الى ظهر المقعد وراح يرمق غريمته فى الجدال ، وكانت تقف خلفه ، مستمتعا بما يبدو عليها من انفعال وغضب . وما لبث ان راح يكرر فى لهجة منغومة :
ـ كانت تحبه ! .. كانت تحبه !
فتدخلت قائلة :

ـ صه يا سيد لينتون ! .. هذه أيضا رواية ابيك ، فيما اظن ..

ـ انها ليست روايته .. وعليك أن تمسكى لسانك ! .. كانت تحبه ! .. كانت تحبه يا كاثرين ! .. كانت تحبه !.. كانت تحبه !

فطاش صواب كاثرين ، ودفعت المقعد دفعة قوية جعلت لينتون يهوى على أحد ذراعيه ، وما لبث أن أصابته نوبة من السعال الخانق وضعت حدا لزهوه وانتصاره .. ودامت النوبة طويلا حتى اقلقتنى ، اما ابنة خاله ، فقد راحت تبكى بكل قوتها ، وقد اذهلها ما اقدمت عليه من اذى ، ولو انها لم تقل شيئا تعتذر به عما اقترفته .. وأمسكت به بين ذراعى حتى زالت عنه نوبة السعال ، وعندئذ دفعنى بعيدا ، واحنى رأسه فوق صدره حيث لبث صامتا بلا حراك .. وكفكفت كاثرين عبراتها ، هى الأخرى ، وجلست ناحية ، وهى تنظر الى النار فى وجوم ..

وانقضت دقائق عشر على هذا النحو ، فقطعت الصمت الذى يرين فوقنا ، لأسأله :

ـ كيف حالك الآن يا سيد هيثكليف ؟

ـ ليتها تحس بما أحس به ، هذه المخلوقة القاسـية الحقود ! .. ان هيرتون لا يمسنى باصبعه قط ، ولم يضربنى مرة واحدة فى حياته .. ثم اننى كنت احسن حالا اليوم ، وها هى ذى قد ..

واختنق صوته فى نشيج حار ، فلم يتم عبارته .. بينما أخذت كاثرين تعض شفتها حتى تحول دون انفجارها باكية من جديد ..

وظل يئن ويتوجع ، كشخص يعانى آلاما مروعة ، أكثر

من ربع ساعة .. وكان من الجلى انه كان يفعل ذلك عن عمد ليزيد من كرب ابنة خاله وضيقها ، اذ كان كلما لمح عبرة تنساب من عينيها فى صمت ، زاد من أنغام الألم المتجددة فى صوته الباكى !

ونفد احتمالها أخيرا ، فما لبثت ان قالت :

ـ اننى آسفة لما ألحقته بك من اذى يا لينتون .. ولكنى ـ أنا ـ ما كنت لأتألم من مثل هذه الدفعة اليسيرة ، وما خطر ببالى انها سوف تؤلمك .. ولكنها لم تؤذك كثيرا ، أليس كذلك يا لينتون ؟ .. قل أنك لم تتألم منها كثيرا ، ولا تدعنى أعود الى منزلى وانا افكر فى اننى قد آذيتك .. اجب .. كلمنى !

ـ لا أستطيع ان اكلمك ! .. لقد آذيتنى الى درجة سوف تجعلنى اقضى الليل مسهدا مختنقا من هذا السعال اللعين .. ولو انك أصبت به لعرفت ما هو .. ولكنك سوف تستغرقين فى نوم هادىء مريح ، بينما أتألم وحدى ، وليس بقربى احد .. ترى كيف تحبين ان تقضى هذه الليالى المروعة ، لو اصابك ما اصابنى ؟ !

فقلت له :

ـ ما دمت قد اعتدت على قضاء هذه الليالى الفظيعة ، فان الآنسة ليست هى التى تفسد راحتك ، ولن يتغير عليك شىء لو لم تكن قد حضرت .. ومهما يكن من امر يا سيد لينتون ، فانها لن تزعجك مرة أخرى ، وارجو لك المزيد من الراحة والهدوء بعد ذهابنا ..

ولكن كاثرين مالت فوقه وهى تسأله فى حزن وأسى :

ـ هل يجب ان اذهب ؟ .. هل تريد أن اذهب يا لينتون؟

فأجابها فى سخط :

ـ انك لا تستطيعين تغيير ما احدثته ! .. الا اذا زدته سوءا بمضايقاتك لى حتى تصيبينى بالحمى !

فرددت سؤالها من جديد : حسنا .. هل يجب ان اذهب اذن ؟

فقال وهو يرتد الى الوراء نافرا :

ـ دعينى وحدى على الأقل ، فانى لا اطيق كلامك !

فتلكأت لحظة ، وهى تقاوم طويلا الحاحى عليها بالانصراف .. فلما وجدته لا ينظر اليها ولا يكلمها ، بدأت تسير متمهلة نحو الباب ، وبدأت اسير فى اعقابها .. ولكن ردتنا عن المضى فى طريقنا صرخة مفاجئة ، فقد انزلق لينتون من مقعده وهوى الى الأرض فوق البلاط المحيط بالمدفأة ، حيث راح يتلوى ، لا من الألم ، وانما لمجرد المشاكسة المنبعثة من طفل عريق فى الشغب ، يعمل بكل ما فى وسعه على مضايقة الغير ومعاندته .. وقد استطعت ان اتبين حقيقة ميوله من مسلكه ، وادركت للتو ان من الجنون بذل أية محاولة للتسرية عنه او تسليته وادخال السرور على نفسه .. ولكن رفيقتى لم تكن على هذا الرأى ، فقد عادت اليه فى عجلة ولهفة وفزع ، وجثت على الأرض بجانبه ، وهى تذرف الدمع السخين وتدلله وتهدىء من روعه ، حتى هدأ اخيرا بعد ان انقطعت انفاسه من كثرة الصراخ ، وليس من تأنيب ضـــميره لازعاجه ايـاها ! .. فتدخلت قائلة :

ـ سوف أحمله الى الأريكة ، حيث يمكنه ان يتلوى ويتقلب كيفما يروق له ، اذ ليس فى وسعنا ان نبقى لرعايته وحراسته .. وارجو يا مس كاثى ان تكونى قد اقتنعت الآن بأنك لست الشخص الذى يفيده وجوده ، وان حالته الصـحية ليس مرجعها الى تعلقه بك .. ها قد وضعته فوق الأريكة ، فتعالى

ننصرف ! .. وما ان يدرك ان ليس هنا من يبالى بهرائه ، حتى يخلد الى السكون راضيا مسرورا ..

ولكنها احضرت وسادة وضعتها تحت رأسه ، وعرضت عليه بعض الماء ، غير انه رفض الماء وراح يتململ فوق الوسادة كأنها حجر او كتلة من الخشب ، فحاولت ان تجعلها اكثر راحة له ، ولكنه قال :

ـ انها لا تريحنى ، فهى ليست مرتفعة كما يجب ..

فأحضرت كاثرين وسادة أخرى وضعتها فوق الأولى .. ولكن ذلك المخلوق المثير غمغم قائلا :

ـ انها اعلى مما ينبغى !

فسألته فى يأس :

ـ وكيف تريد أن أسويها اذن ؟

فدار حول نفسه حتى رفع رأسه واتخذ له متكأ فوق كتف كاثرين التى كانت منحنية بجانب الأريكة .. فقلت :

ـ كلا .. ان هذا المسند لا يصلح لك يا سيد هيثكليف ، وعليك ان تقنع بالوسادة ، فقد اضاعت الآنسة عليك من وقتها ما فيه الكفاية حتى الآن ، ولن نستطيع البقاء خمس دقائق أخرى ..

فقاطعتنى كاثى قائلة :

ـ كلا .. كلا .. بل نستطيع البقاء ! .. انه الآن طيب صبور ، وقد بدأ يفهم اننى كنت خليقة بأن احس بشقاء عظيم ، اكثر مما سوف يعانيه ، لو اعتقدت ان زيارتى له هى التى زادته سوءا ، واننى بذلك لن اجرؤ على معاودة الزيارة .. قل الحقيقة يا لينتون ، لأننى لن احضر ثانية اذا كنت قد آذيتك !

فأجاب :



« .. فقد ارتمى لينتون بهيكله المنهار الاعصاب على الارض ، وراح يتمرغ تحت قدميها ، والدموع تخضل وجهه الشاحب الذى ارتسمت عليه معالم الألم الفظيع .. كان يبدو كأن فزعا مروعا يهز جسمه هزا .. »

(صفحة ٤١١)

ـ بل يجب عليك ان تأتى ، لتساعدى على شفائى .. يجب ان تأتى لأنك آذيتنى ، وانت تعرفين الى أى حد بلغ ايذاؤك هذا .. فلم اكن مريضا عند قدومك بالقدر الذى بلغته الآن ، أليس كذلك ؟

فقلت له :

ـ بل أنت الذى اسأت الى صحتك بامعانك فى البكاء والصراخ والانفعال ..

وقالت ابنة خاله :

ـ اننى لم افعل شيئا على الاطلاق ! .. ولكننا ، على اية حال ، سوف نغدو اصدقاء الآن ، فهل تريدنى حقا ؟ .. هل تود ان ترانى بين الحين والآخر ؟

فأجاب فى صبر نافد :

ـ قلت لك اننى اود ذلك ! .. والآن تعالى اجلسى على الأريكة ، ودعينى اتوسد ركبتك .. فهكذا كانت تفعل امى امسيات برمتها ! .. اجلسى ساكنة ولا تتكلمى قط .. ولكن فى وسعك ان تغنى ، اذا كنت تعرفين الغناء .. او لعلك تسمعيننى ملحمة طويلة مسلية ، من تلك الملاحم التى وعدت بأن تعلمينى اياها ، او تقصين على قصة جميلة .. ولكننى افضل الملحمة .. هيا .. ابدئى !

فأخذت كاثرين تنشد له اطول ملحمة استطاعت أن تتذكرها .. وطابت نفساهما لهذه المهمة . وطلب لينتون ملحمة غيرها ، ثم أخرى بعدها ، رغم اعتراضاتى المتكررة .. وظلا على هذه الحال حتى دقت الساعة الثانية عشرة ، وسمعنا صوت هيرتون فى الفناء وهو يعود لتناول الغداء ..

ونهضت كاثرين متكرهة ، فأمسك لينتون الشاب بطرف ردائها وهو يقول :

ـ ألا تأتين الى هنا فى الغد يا كاثرين ؟
فتوليت الاجابة ، وقلت :

ـ كلا .. لا فى الغد ولا بعده !
ويبدو انها ، رغم ذلك ، قد طمأنته باجابة مختلفة ، اذ رأيت وجهه يتهلل فرحا وهى تنحنى فوقه وتهمس فى أذنه ..
فلما غادرنا المنزل ، بدأت أقول :
ـ انك لن تحضرى غدا يا آنسة ، فاذكرى ذلك جيدا .. ولا أظنك تحلمين بشىء كهذا ، أليس كذلك ؟
ولكنها لم تزد على الابتسام ، فاستطردت قائلة :

ـ آه ! .. سوف آخذ حذرى تماما .. سوف أصلح ذلك القفل ، ولن تجدى طريقا أخرى تهربين منها ..
فقهقهت مسرورة ، وقالت :

ـ سوف أتسلق السور !.. فان « الجرانج » ليس سجنا يا ايلين ، وانت لست سجانتى .. وفضلا عن ذلك فانى أشرفت على السابعة عشرة ، واصبحت امرأة ! .. وانى واثقة من شفاء لينتون سريعا ، اذا ما أتيح له أن اقوم على العناية به ورعايته .. ثم اننى ، كما تعرفين ، أكبر منه سنا ، وأكثر تعقلا ، واقل تدللا وصغارا ، أليس كذلك ؟ .. ولن يلبث حتى يستجيب لتوجيهاتى ، مع قليل من الملاينة والملاطفة من جانبى .. فانه يغدو فتى جميلا رقيقا عندما يكون فى اطيب حالاته .. وسوف اجعل منه طفلى المدلل ، لو اصبح لى .. اننا لن نتشاجر قط بعد أن يعتاد احدنا الآخر .. أليس كذلك ؟ .. الا تحبينه يا ايلين ؟
فصحت قائلة :

ـ احبه ؟ .. انه اسوأ مضغة رأيتها تناضل الأسقام لتبلغ سن المراهقة ، خلقا وطباعا .. ومن حسن الحظ انه لن يبلغ

العشرين قط ، كما تكهن مستر هيثكليف .. بل اننى لأشك حقا فى بقائه حيا الى الربيع القادم .. وما أقلها من خسارة سوف تصيب أسرته بموته عندما يحين اجله ! .. لقد كان من حسن طالعنا أن أباه قد أخذه ، فلو بقى معنا لظل يزداد أنانية ونكدا ، كلما زدناه عطفا ورفقا ! .. وكم يسرنى أنه لن تتاح لك اية فرصة لتتخذى منه زوجا لك يا مس كاثى !

فقطبت رفيقتى أساريرها فى وجوم وهى تسمع هذا الحديث .. فان كلامى عن موته بهذه البساطة وقلة الإكتراث قد جرح شعورها .. وما لبثت أن قالت ، بعد فترة من التفكير والتأمل :

ــ أنه أصغر منى ، وهو بذلك خليق بأن يعيش أكثر منى .. وسوف يعيش !.. بل لابد أن يعمر مثلى على الأقل !.. وهو الآن من القوة بمثل ما كان عند قدومه الى الشمال أول مرة .. اننى واثقة ان علته ليست الا بردا خفيفا ، كالذى أصاب والدى .. وأنت تقولين أن ابى سوف يشفى قريبا ، فلماذا لايشفى هو كذلك ؟

فصحت بها حانقة :

ــ حسنا .. حسنا .. لاحاجة بنا لأن نشغل نفسينا بهذا الأمر .. فأصغى الى يا آنسة ، وتدبرى قولى جيدا ، اذ اننى سوف احافظ على كلمتى .. انك اذا حاولت الذهاب الى « مرتفعات ويذرنج » ثانية، سواء معى أو بدونى، فسوف اخبر مستر لينتون .. ومالم يسمح لك ، فان كل صلة بينك وبين ابن عمتك يجب ألا تتجدد قط ..

فغمغمت كاثى فى تجهم :

ــ لقد تجددت فعلا ..

ــ اذن يجب ألا تستمر ..

فكان جوابها : « سوف نرى ! » ، ثم أطلقت العنان لمهرها فانطلق يعدو بها ، تاركة اياى أسير مكدودة فى المؤخرة !

وبلغنا المنزل قبل موعد غدائنا .. وكان السيد قد حسبنا نقوم بجولة فى البستان، فلم يسألنا تفسيرا لغيبتنا الطويلة ..

وما كدت أدخل المنزل حتى أسرعت أستبدل حذائى وجواربى المبللة ، ولكن بقائى بها مدة طويلة فى « المرتفعات » كان قد أحدث أثره السىء .. ففى صباح اليوم التالى لم أستطع القيام ، ولزمت الفراش ثلاثة أسابيع كاملة عجزت خلالها عن الاضطلاع بواجباتى فى المنزل .. ولم أكن قد عانيت مثل هذا المرض قبل ذلك ، كما اننى — والحمد لله — لم أصب بمثله منذ ذلك الحين ..

وكان مسلك سيدتى الصغيرة أشبه بالملائكة ، وهى تأتى لخدمتى والعناية بى والترفيه عنى فى وحدتى .. وكان اعتكافى هذه المدة محطما لروحى المعنوية الى حد بعيد، فليس أشد ايلاما ، لشخص اعتاد الحركة والنشاط ، من اضطراره الى التزام السكون والجمود .. ولكن ذلك ، والحق يقال ، كان سببا تافها للتذمر والشكوى .. فان كاثرين كانت لا تكاد تغادر حجرة أبيها ، حتى تهرع الى جوار فراشى .. كان يومها مقسما بيننا كلينا ، لاتقتطع منه لحظة لمتعتها الخاصة .. بل لقد أهملت وجبات طعامها ، ودروسها، ولعبها .. كانت أشد الممرضات ولعا بواجباتها وتعلقا بها .. ولا ريب انها كانت تضم صدرها على قلب كبير ، استطاعت أن تهبنى منه الكثير، مع حبها العظيم لأبيها .. وقد قلت ان أيامها كانت مقسمة بيننا ، ولكن السيد كان يعتكف مبكرا ، كما اننى لم أكن أحتاج لشىء عادة بعد الساعة السادسة .. وهكذا كانت الأمسيات ملكا خالصا لها .. يا للطفلة المسكينة ! .. اننى مافكرت قط

فيما كانت تشغل به نفسها فى تلك الأمسيات بعد تناول الشاى .. ومع اننى لاحظت كثيرا ، عند ما كانت تأتى الى حجرتى لتتمنى لى ليلة طيبة ، توردا نضيرا فى وجنتيها ، واحمرارا قانيا في أصابعها النحيلة ، الا أننى كنت أعزو ذلك الى توهج النار فى المدفأة ، بدلا من أن أفكر فى احتمال حدوثه من رحلة على الجواد فى برد البرارى القارس !

الفصل الرابع والعشرون

فى ختام الأسابيع الثلاثة ، استطعت أن أغادر حجرتى وأتمشى فى انحاء المنزل .. فلما اتيح لي الجلوس فى المساء لأولّ مرة بعد مرضى ، رجوت كاثرين أن تقرأ لى لأن عينى كانتا كليلتين ، أضعفهما المرض .. وكنا جالستين فى المكتبة، بعد أن أوى السيد الى فراشه ، فخيل الى ان رضى كاثرين كان مشوبا بشىء من التردد او التكره ، وعزوت ذلك الى أن كتبى من النوع الذى لاتروق لها مطالعته ، فطلبت اليها أن تتولى بنفسها اختيار ماتقرؤه ، فانتقت أحد كتبها المفضلة ومضت تقرأ لى زهاء ساعة كاملة ، ثم بدأت بعد ذلك تقطع القراءة لتمطرنى بالأسئلة :

ــ ألست متعبة يا ايلين ؟ .. أليس الأفضل أن تخلدى الى فراشك الآن ؟ .. هل يعاودك المرض من طول السهر ياايلين؟

فكنت فى كل مرة أجيبها : كلا .. كلا ياعزيزتى .. لست أشعر بأى تعب قط ..

فلما رأتنى لا أتحرك من مكانى ، لجأت الى محاولة أخرى تظهر بها نفورها من هذه المهمة ، فانقلب الأمر الى التثاؤب والتمطى ، حتى ضاق ذرعها فقالت :

ـ لقد تعبت يا ايلين ..

ـ دعى القراءة اذن ، ولنتكلم سويا ..

ولكن ذلك كان لديها أسوأ من القراءة ، فراحت تتململ وتتنهد ، وتنظر الى ساعتها حتى بلغت الساعة الثامنة ، فنهضت لتذهب الى حجرتها .. وحدست من نظراتها المتبرمة الثقيلة ، ومن فرك عينيها طويلا ، ان النعاس قد أنهكها تماما ولم تعد تقوى على مغالبته .. وفى الليلة التالية كانت أضيق صدرا وأكثر تبرما .. وفى الليلة الثالثة من ملازمتها لى شكت من صداع أصابها ، وتركتنى مبكرة .. وخيل لى أن مسلكها يبدو غريبا ، فلما طال مكثى وحيدة فترة طويلة ، رأيت أن أذهب اليها لأستفسر منها ان كانت قد تحسنت ولأسألها أن تأتى لتضطجع على الاريكة بدلا من بقائها فى الظلام فى الطابق العلوى وحدها .. ولكننى لم أجد أثرا لكاثرين فى الطابق العلوى ولا فى غيره من أرجاء البيت .. واكد لى الخدم جميعا انهم لم يروها .. فرحت أنصت مليا عند باب مستر لينتون ، ولكن الصمت كان يسود الحجرة فلم أسمع فيها صوتا أو حسا .. وأخيرا عدت الى حجرتها ، واطفأت شمعتى ، وجلست أنتظر فى فراغ النافذة ..

كان القمر يغمر الحديقة بضيائه المتألق ، والأرض قد اكتست بغلالة رقيقة من ندف الثلج المتساقطة ، فخطر لى انها قد تكون فكرت فى القيام بجولة فى الحديقة تنعشها وتخفف من صداعها .. وما لبثت أن لمحت فجأة شبحا يسير فى حذر بجوار سياج الحديقة الداخلى ، حسبته بادىء الأمر سيدتى الصغيرة ، ولكنه ما ان برز الى الضياء حتى تبينت فيه أحد السياس .. وظل واقفا فترة طويلة يتطلع الى طريق العربات الخارجي فى اهتمام ، واذا به يندفع بغتة فى خطى

حثيثة ، كأنما اكتشف شيئا يرقبه ، ثم مالبث أن ظهر بعد قليل وهو يسحب وراءه مهر الآنسة ، وهى تسير الى جانبه بعد ان ترجلت عنه فى التو واللحظة .. ومضى الرجل بوديعته فى حذر وتلصص نحو الاسطبل ، بينما تسللت كاثى الى المنزل من نافذة مفتوحة فى حجرة الجلوس ، وتسلقت الدرج فى خفة وسكون الى حيث كنت فى انتظارها فى الطابق العلوى ! .. وأغلقت باب الحجرة خلفها فى رفق ، ثم نزعت حذاءيها اللذين كساهما الثلج ، وخلعت قبعتها ، وشرعت تتقدم ، دون أن تحس بتجسسى عليها ، لتضع معطفها جانبا ، وعندئذ نهضت بغتة وبرزت من مكمنى !

وعقلت المفاجأة لسانها من الفزع لحظة ، وبدا ارتياعها فى الشهقة التى انبعثت منها ، وجمدت فى مكانها بلا حراك .. وكنت شديدة التأثر بما بدا منها من رفق وعناية بى أثناء مرضى القريب ، فبدأت أقول لها دون ان تنطوى كلماتى على شىء من التأنيب أو اللوم ..

— الى أين ذهبت على ظهر جوادك فى مثل هذه الساعة ياعزيزتى الآنسة كاثرين ؟ .. ولماذا حاولت خداعى باختلاق الأكاذيب ؟ .. أين كنت ؟ .. تكلمى !

فتعثرت الكلمات فى فمها وهى تقول :

— لقد ذهبت أتنزه عند نهاية البستان ، ولم أختلق أية اكاذيب !

— ألم تذهبى الى أى مكان آخر ؟ ..

فلم تزد على أن غمغمت قائلة : « كلا .. »

فقلت فى أسى وقد تهدج صوتى بالبكاء :

— أواه ياكاثرين ! .. أنت تعلمين انك قد اتيت خطأ كبيرا ، والا ما اندفعت الى الكذب على .. وان ذلك ليحزننى كثيرا ..

ولقد كان الأولى لى أن يدوم مرضى ثلاثة أشهر ، من أن اسمعك تختلقين الكذب عمدا ..

فاندفعت الى الأمام ، وهى تنفجر باكية ، وأحاطت عنقى بذراعيها ، قائلة :

ـ حسنا يا ايلين .. لقد كنت أخشى أن تغضبى منى ، فعدينى ألا تغضبى ، وسوف تعرفين الحقيقة بحذافيرها ، لأننى أكره اخفاءها عنك ..

فجلسنا على مقعد بجوار النافذة ، وأكدت لها اننى لن أؤنبها مهما يكن سرها ، ولو اننى بالطبع كنت قد حدسته .. فبدأت تقول :

ـ لقد كنت فى « مرتفعات ويذرنج » ياايلين ، ولم أتخلف عن الذهاب الى هناك يوما واحدا منذ مرضك، الا ثلاث مرات قبله ، ومرتين بعد أن شفيت وغادرت حجرتك .. كنت أمنح «مايكل» الكتب والصور ليعد لى «مينى» كل مساء، وليعيده الى الاسطبل بعد عودتى .. ولكن لاتوجهى اليه لوما أو تأنيبا هو الآخر .. وكنت أصل الى المرتفعات فى السادسة والنصف، وأظل بها عادة حتى الثامنة ، فأعود مسرعة اركض بجوادى ركضا .. ولم يكن ذهابى الىهناك بحثا عن التسلية والترفيه لنفسى ، بل لقد كنت كثيرا ما أقضى وقتى هناك مهمومة مكروبة ! .. كنت لا أحس بالسعادة الا بين الحين والحين ، لعلها لم تكن تعدو مرة فى الأسبوع ! .. وفى بادىء الأمر،كنت أتوقع أن ألقى عناء شديدا فى اقناعك بالسماح لى بالوفاء بوعدى للينتون ، اذ كنت قد وعدته ، عند انصرافنا ، بزيارته فى اليوم التالى .. ولكنى نجوت من هذا العناء عند ما لزمت فراشك فى الطابق العلوى فى الغداة .. وبينما كان مايكل يثبت قفل باب الحديقة بعد اصلاحه ، عصر ذلك اليوم ،

أخذت منه المفتاح وأخبرته كيف يتوق ابن عمتى الى زيارتى له ، لأنه مريض لايستطيع الحضور الى « الجرانج » ، وكيف أتوقع من والدى معارضة شديدة لذهابى .. ثم مضيت فى مساومته حول اعداد المهر لى .. وكان شغوفا بالقراءة، ويفكر فى ترك خدمتنا قريبا ليتزوج .. وهكذا عرض على أن يقوم بكل ما أطلبه منه اذا أعرته كتبا من المكتبة .. ولكنى فضلت أن اعطيه من كتبى الخاصة ، فكان رضاه وسروره بها يفوق كل حد ..

وفى الزيارة الثانية ، بدا لى لينتون نشيطا فى خير حالاته ، وأعدت لنا زيللا (مدبرة منزلهم) حجرة نظيفة ونارا تتلظى فى المدفأة ، ثم أخبرتنا بأن جوزيف خرج ليشترك فى صلاة جامعة ، وأن هيرتون صحب كلابه الى الخارج – وسمعت فيما بعد أنه كان يسرق الطيور من غابتنا – ومن ثم يمكننا أن نفعل مايحلو لنا .. وأحضرت لنا بعض النبيذ الدافىء وكعك الزنجبيل، وأبدت نحونا عطفا وطيبة بالغين .. وجلس لينتون فى المقعد الكبير ذى الوسادتين، بينما اخترت لجلوسى مقعدا هزازا صغيرا بجوار المدفأة ، ومضينا نضحك ونتبادل احاديث المرح والسرور . ولم يعوزنا شىء من فنون الحديث، ورحنا نرسم خطط ما سوف نفعله فى الصيف والأماكن التى سنذهب اليها .. وما بى من حاجة الى ترديد ذلك على مسامعك لأنك ستسمينه سخفا ولغوا ..

ومع ذلك كدنا نتشاجر ذات مرة .. فقد قال ان أمتع وأبهج طريقة لقضاءيوم حار من أيام شهر يوليو، هى ان يرقد المرء من الصباح حتى المساء فوق تل مغطى بالعشب وسط البرارى ، والنحل يطن حوله وسط أكمام الزهور ، سعيدا هانئا ، والقنابر تحلق فوق رأسه تصدح بأنغامها الشجية ، بينما السماء الزرقاء والشمس الساطعة تملآن الفضاء حوله

اشراقا وضياء لاتفسده السحب .. تلك كانت فكرته المثالية عن سعادة لاتطاولها سعادة الجنان .. أما قصارى السعادة فى رأيى فكانت التأرجح بين أغصان شجرة خضراء ، لأوراقها حفيف لا ينتهى .. تهب عليها ريح غربية ،وترفرف فوقها سحب بيضاء سريعة متتابعة ، وتتدفق الأنغام حولها من كل جانب ، لا من القنابر فحسب ، بل من كل أنواع الطيور الصداحة ، وتتراءى البرارى من بعد وهى تتكسر وديانا وأخاديد باردة معتمة ، تتخللها قباب عظيمة من الحشائش الطويلة التى تتهدل تحت أنامل النسيم أمواجا بعد أمواج ، ويمتلىء الفضاء حولها بخشخشة الشجر وخرير جداول الماء ، والدنيا كلها من حولى يقظى ترقص فى وحشية على أنغام من الطرب والسرور .. كان كل مايريده هو أن يرقد فى نشوة من الهدوء والدعة ، وكانت كل أمنيتى أن أتلألأ وارقص فى عيد عظيم من اعياد الدنيا .. قلت له أن عالمه ليس الا عالما مسجى بين الحياة والموت ، فقال لى ان عالمى ليس الا عالما ثملا مخمورا ! .. قلت اننى فى عالمه لا ألبث أن يدركنى النعاس ، فقال انه فى عالمى لايلبث ان يضحى مقطوع الأنفاس ! .. ثم أخذته نوبة من القحة وسلاطة اللسان ، ولكنى رحت ألاينه حتى اتفقنا فى النهاية على أن يجرب كلانا كلا العالمين ، عند ما يحين موعد الطقس الملائم ، وعندئذ تبادلنا القبلات وعدنا صديقين ..

وبعد أن ظللت جالسة فى سكون زهاء ساعة ، تطلعت حولى الى الحجرة العظيمة بأرضيتها العارية الجميلة ، وفكرت فى روعة اللعب فيها اذا رفعنا المائدة .. فطلبت الى لينتون أن يدعو زيللا لمساعدتنا ، ولتلعب معنا لعبة (الاستغماية) ، فتحاول أن تمسك بنا وهى معصوبة العينين ، كما اعتدت أن

تلعبى معنا ياايلين .. فلم تطب له هذه اللعبة ، وزعم ان ليس فيها متعة أو تسلية .. ولكنه رضى أن يلعب معى بالكرة . ووجدنا كرتين فى الصوان وسط كومة من اللعب القـديمة و (النحل) والمضارب والسهام المريشة .. وكان على احدى الكرتين حرف «ك» وعلى الأخرى حرف «هـ» ، فرغبت فى أخذ الأولى لعلمى أن الحرف المنقوش عليها يرمز الى « كاثرين » ، وأن الأخرى قد ترمز الى اسمه هو أى « هيثكليف » ، ولكن حشو كرته كان يبرز من ثقب فيها ، فلم ترق فى نظره ! .. وظللت أغلبه باستمرار ، فتملكه الغضب من جديد ، وأخذ يسعل ، ثم عاد الى مقعده .. ومع ذلك ، فقد عاد الى مرحه وانبساطه فى تلك الليلة بغير عناء ، مأخوذا بسحر اغنيتين أو ثلاث من أغنياتك الجميلة ياايلين .. وعند ما اضطررت الى الانصراف ، راح يرجونى ويتوسل الى بأن أعود اليه فى المساء التالى ، فوعدته بذلك .. وعاد بى « مينى » الى الدار فى خفة الهواء وسرعة الريح ! .. وقضيت ليلتى حتى الصباح أحلم « بمرتفعات ويذرنج » وبابن عمتى اللطيف المحبوب !

ولازمنى الاكتئاب فى اليوم التالى لسببين ، أولهما أن المرض اشتد عليك ، والثانى لأنى كنت أود أن يعرف أبى بالأمر ، ويوافق على رحلاتى هذه .. فلما فرغت من تناول الشاى ، كان القمر قد أشرق بضيائه الساحر الجميل ، وسرعان ما تبدد اكتئابى عند ما ركبت ذاهبة الى هناك .. كنت أمنى نفسى بقضاء امسية سعيدة أخرى ، ولكن الذى زاد من ابتهاجى هو ان لينتون كان سيقضى بدوره أمسية سعيدة .. ودخلت بالجواد الى حديقة المنزل ، وهممت بأن أدور حوله الى الباب الخلفى ، عندما قابلنى ذلك الشخص هيرتون ، وأمسك بعنان

جوادى ، وطلب الى أن أدخل من الباب الأمامى .. وراح يربت على عنق « مينى » ويقول انه جواد جميل أصيل ، وكان يبدو كأنما يسعى وراء دفعى الى تبادل الحديث معه .. ولكنى لم أقل له أكثر من أن يترك الجواد وشأنه ، حتى لا يركله .. فأجاب بلهجته السوقية وهو يفحص سيقان الجواد بأنظاره فى ابتسام : « لو فعل ذلك فلن يحدث أذى كبيرا » .. وكنت أكاد أميل الى جعل الجواد يجرب فيه ذلك ! .. ومهما يكن من أمر فانه مضى امامى ليفتح الباب ، وما أن وضع يده على المزلاج حتى تطلع الى النقوش التى تعلوه (١) ، وقال فى مزيج ابله من الارتباك والزهو معا :

ــ أستطيع الآن ان اقرأ هذه الكتابة يا مس كاثرين !
فهتفت قائلة :

ــ ما شاء الله ! .. ما أبدع ذلك ! .. اسمعنا اذن من فضلك .. لقد ازددت ذكاء وحذقا كما يبدو !

فأخذ يتهجى الحروف ، ويتمشدق بالمقاطع ، حتى قرأ « هيرتون ايرنشو » .. ولكنه ما لبث أن سكت فجأة .. فلما طال صمته قلت استحثه مشجعة :

ــ والأرقام ؟

ــ لا أستطيع قراءتها بعد !

فقهقهت ضاحكة فى جذل ، وصحت به :

ــ آه يا بليد !

فراح الغبى يحملق فى وجهى وقد حامت حول شفتيه تكشيرة واسعة ، وتجمعت حول عينيه جهامة وعبوس ، كأنما

---

(١) يذكر القارىء أن الباب الرئيسى تعلوه نقوش تقرأ « هيرتون ايرنشو » وتحت هذا الاسم نقشت سنة بناء الدار « ١٥٠٠ »

أخذته الحيرة فيما اذا كان يجدر به أن يشاركنى المرح ، وفيما اذا كانت كلماتى تنم عن مجرد ملاطفة ودية ، أم انها — كما كانت فى الحقيقة — تنم عن الازدراء والاحتقار .. وحسمت شكوكه ، بأن استعدت فجأة رصانتى ، وسألته أن يمضى لشأنه لأننى قدمت لزيارة لينتون ، لا لرؤيته هو .. فرأيت وجهه ، فى ضوء القمر ، تعلوه حمرة قانية . وأبعد يده عن المزلاج ، ثم انصرف متواريا عن أنظارى وهو صورة مجسمة للزهو المهيض .. وأحسبه قد خال نفسه سيدا مهذبا مصقولا مثل لينتون لمجرد أنه عرف كيف يتهجى اسمه ! .. فخاب أمله اذ وجدنى لا أقدر له هذه المنزلة ..

قالت مسز دين تتابع حديثها : فقاطعتها قائلة :

— مهلا يا عزيزتى مس كاثرين .. اننى لن ألومك أو اؤنبك، ولكنى لا احب مسلكك هذا .. فلو انك ذكرت ان هيرتون هو ابن خالك مثلما كان السيد هيثكليف ابن عمتك ، لأدركت مبلغ تجنبك الصواب بمسلكك وتصرفك على هذا النحو .. وعلى الأقل فان طموحه الى مجاراة لينتون وتطلعه الى أن يكون مهذبا مصقولا مثله ، أمر كان يستحق منك الاعجاب والاطراء .. ولعله لم يرد تعلم القراءة لمجرد رغبته فى التفاخر، فلست أشك فى أنه خجل عندما عيرته بجهله ، فأراد أن يداوى هذا الجهل، ويستجلب غبطتك ورضاك .. لذلك فان السخرية من جهوده المتواضعة انما تنم عن سوء الأدب ! .. ولو انك ربيت فى مثل ظروفه ، فهلا كنت نشأت أقل تهذيبا وأكثر همجية ؟ .. لقد كان وهو طفل صغير لا يقل عنك نشاطا وذكاء ، وانه ليؤلمنى ويؤذى شعورى أن يلقى الآن مثل هذا الازدراء والاحتقار ، لا لسبب الا لظلم ذلك السافل هيثكليف له ، وسقيه اياه كؤوس الهوان والمذلة ..

فدهشت لحماستى وغيرتى ، وصاحت قائلة :

ـ حسنا ياايلين .. لا أحسبك سوف تبكين من أجله !.. أصبرى حتى تسمعى اذا كان قد حفظ الحروف الأبجدية مرضاة لى ، واذا كان ذلك الوحش يستحق المعاملة فى أدب ورقة ! .. لقد دخلت الى حجرة الجلوس ، فوجدت لينتون راقدا فوق الأريكة ، وقد هم بالنهوض لملاقاتى وهو يقول :

ـ اننى مريض الليلة يا حبيبتى كاثرين ، فعليك أن تتولى الحديث كله ، وتدعينى أصغى اليك فحسب .. تعالى واجلسى بجانبى ! .. لقد كنت واثقا من أنك ستفين بوعدك ، وسوف تعدينني الليلة أيضا بالحضور غدا ..

وكنت قد أدركت اننى لاينبغى لى أن اضايقه او اعانده ، لأنه كان سقيما .. فرحت أتحدث اليه فى رفق وهدوء ، لا أوجه اليه أى سؤال ، متجنبة كل ماقد يثيره .. وكنت قد أخذت له معى بضعة من اجمل كتبى ، فطلب الى ان اقرأ له قليلا فى احدها ، وكنت على وشك ان ألبى رغبته ، عند ما دفع ابرنشو الباب فى عنف ، وقد جمع بين سموم الحقد والنية السيئة المبيتة ، فتقدم نحونا مباشرة ، وأمسك بذراع لينتون وجذبه فطوح به من فوق الأريكة وهو يقول فى صوت مدغوم من شدة الغضب والانفعال ، وقد انتفخت أوداجه وبدا ثائرا شديد الهياج :

ـ هيا اذهب الى حجرتك ! .. وعليك أن تأخذها الى هناك مادامت تحضر لرؤيتك .. انك لن تحرمنى من الجلوس هنا ، فاذهب الى الشيطان أنت وهى !

وانطلق يرمينا بأقذع السباب ، ولم يدع للينتون الفرصة لاجابته ، بل سحبه الى باب المطبخ ودفعه اليه ، ثم رفع قبضته فى وجهى بينما كنت أتبع لينتون ، حتى ظننت أنه

يتوق الى أن يصرعنى ارضا ! .. وتملكنى الفزع لحظة ، فسقط أحد الكتب من يدى ، وعندئذ ركله بقدمه ورائى وهو يوصد خلفنا باب المطبخ .. وفى تلك اللحظة سمعت ضحكة خبيثة مجلجلة تنبعث من جانب الموقد ، فاستدرت ورأيت ذلك الشيخ البغيض جوزيف واقفا يفرك يديه المقددتين، وهو يهتز طربا ويقول :

ــ كنت واثقا من أنه سيطردكما .. فهو فتى عظيم ، سرت فى عروقه روح أجداده العظيمة .. انه يعلم ، مثلما أعلم ، منذا الذى كان يجب أن يكون السيد هنا .. ها .. ها ها ! .. لقد أفزعكما تماما .. ها .. ها .. ها !

ولم أبد اكتراثا لسخرية الوغد العجوز ، وسألت ابن عمتى :

ــ أين يجب أن نذهب الآن ؟

ولكن لينتون كان شديد الامتقاع يرتعد غضبا وانفعالا .. وصدقينى ياايلين انه لم يكن جميلا وقتئذ .. كلا .. بل كان يبدو لى مخيفا مفزعا .. لأن وجهه النحيل وعينيه الواسعتين كانت جميعا تتقلص فى غضب جنونى مغلول .. فأمسك بمقبض الباب وراح يهزه بكل ما وسعته قوته ، وكان موصدا من الداخل ، وهو يصيح بصوت حاد :

ــ اذا لم تفتح لى الباب فسوف أقتلك ! .. اذا لم تفتح لى الباب فسوف أقتلك !.. أيها الشيطان .. ايها الشيطان ! .. سوف اقتلك ! .. سوف أقتلك !

فجلجلت قهقهة جوزيف الساخرة من جديد ، وراح يقول :

ــ من شابه أباه !.. انه أبوه تماما !.. لقد جمعنا السلالتين

حولنا . . واحد هنا وواحد هناك ! . . لا تخش شيئا باهيرتون، يا بني ، ولا تخف منه فانه لا يستطيع أن ينالك . .

وأمسكت بيدى لينتون وحاولت أن أجذبه بعيدا عن الباب ولكنه كان يصرخ صراخا مقيتا جعلنى لا اجرؤ على المضي فى محاولتى . . وأخيرا اختنقت صيحاته فى نوبة مروعة من . . فجريت الى الفناء وقد غشيت نفسي من الرعب ، وناديت السعال، وما لبث ان تدفق الدم من فمه وسقط على الأرض زيللا بأعلي صوت استطعته . . وسرعان ماسمعتنى، وكانت تحلب الأبقار تحت مظلة وراء صومعة الغلال ، فتركت ما فى يدها وهرعت الى تسألنى عما هنالك . . وكنت مبهورة الأنفاس لا أستطيع النطق وشرح الأمر ، فاكتفيت بأن جذبتها نحو المطبخ ، ورحت أنظر حولى باحثة عن لينتون ، فاذا بايرنشو قد ترك حجرة الاستقبال وأتى ليرى آثار الشر الذى أحدثه ، فرأيته يحمل لينتون المسكين بين ذراعيه ويصعد به الدرج الى الطابق العلوى . . فصعدت وراءه مع زيللا ، ولكنه اوقفنى عند قمة الدرج ، وقال اننى لاينبغي أن أدخل الحجرة وراءهم ، وانما يجب ان اعود الى منزلى . . فصحت فيه انه قتل لينتون ، وان لابد لى من الدخول . . وعندئذ أوصد جوزيف باب الحجرة وقال انه لايخلق بى أن أرتكب مثل هذه الحماقة، وسألنى ان كنت اود ان أكون مجنونة مثل لينتون ؟ . . فظللت واقفة أبكى حتى ظهرت زيللا ثانية ، وأكدت لى انه حرى بأن يتحسن قليلا ، لو كف عن ذلك الصراخ وتلك الجلبة التى يحدثها ، ثم أخذتنى ، وهى تكاد تحملنى حملا ، الى حجرة الجلوس . .

وصدقينى يا ايلين اننى كدت أقطع شعر رأسى ، ومضيت ابكي وانتحب حتى غشيت عيناى ولم اعد ابصر شيئا . .

وكان ذلك الوغد الذى تعطفين عليه بهذا القدر يقف تجاهى ، ويبيح لنفسه بين آن وآخر أن يطلب الى السكون ، ولا يفتأ ينفى مسئوليته عما حدث .. وأخيرا انتابه الفزع من تأكيدى له بأننى سأخبر أبى بما حدث ، وأنه سوف يلقى فى السجن ثم يشنق ، فأجهش بالبكاء هو نفسه ، ثم انفلت مسرعا الى الخارج ليخفى انفعاله واستخذاءه .. ومع ذلك فلم أتخلص منه تماما تلك الليلة .. فعندما انتهى الأمر بارغامى على الرحيل ، وابتعدت عن المنزل نحو ثلاثمائة ياردة ، انبعث فجأة أمامى من الظلام على أحد جانبى الطريق ، وأمسك بزمام جوادى « مينى » وهو يقول لى :

ـ اننى شديد الحزن يامس كاثرين .. ولكن ، فى الوقت نفسه ، كان من المؤلم لى ..

فعاجلته بضربة من سوطى أصابته بقطع دام فى وجهه ، وجعلتنى أظنه ربما قتلنى بسببها .. ولكنه ترك عنان الجواد ، وانطلق يهدر بألفاظ السباب كالرعد القاصف ، فأطلقت العنان للجواد وعدت الى المنزل وقد أوشكت أن أفقد حواسى ..

ولم اذهب الى حجرتك لأتمنى لك ليلة طيبة ، كما لم أذهب الى « مرتفعات ويذرنج » فى الليلة التالية .. كنت شديدة الاشتياق الى الذهاب ، ولكنى كنت مهتاجة الأعصاب الى درجة غريبة .. كنت أحيانا أتوجس شرا وأخشى ان اسمع بموت لينتون ، وكنت احيانا أرتجف فزعا لمجرد التفكير فى الالتقاء بهيرتون .. وعاودتنى شجاعتى فى اليوم الثالث ، أو الأحرى أن تقولى اننى لم أطق الصبر على مزيد من الحيرة والشك ، فتسللت ماضية الى هناك مرة أخرى .. ذهبت فى الخامسة ، ماشية على قدمى ، وقد خيل الى اننى أستطيع تدبير الأمر بحيث أتسلل الى المنزل ، ثم الى حجرة لينتون ،

دون أن يرانى أحد .. ولكن الكلاب كشفت أمرى واذاعت نبأ مقدمى ، فاستقبلتنى زيللا قائلة : « ان الفتى يتحسن على نحو بديع » . ثم قادتنى الى حجرة صغيرة أنيقة مفروشة بالسجاد ، امتلأ قلبى بسرور صامت عندما شهدت فيها لينتون راقدا فوق أريكة صغيرة ، يطالع كتابا من كتبى .. ولكنه لم يشأ أن يخاطبنى أو ينظر الى خلال ساعة كاملة يا ايلين ! .. كان وقتئذ فى حالة تعسة من الشراسة وسوء الخلق .. والذى زاد من دهشتى وعقل لسانى عن الكلام ، أنه عندما فتح فمه لم يفعل الا لينطق بتلك الفرية المروعة ، وهى أننى كنت السبب فى ذلك الشجار ، وأن هيرتون لا لوم عليه ولا تثريب ! .. واذ وجدتنى عاجزة عن الاجابة حتى لا أنفجر باكية ، فقد نهضت ومشيت خارجة من الحجرة .. فأرسل خلفى ذلك النداء الخافت : « كاثرين » ! .. ولكن لم يكن فى حسبانه وتقديره أن يكون ردى عليه مافعلته ، اذ ضربت بندائه عرض الحائط ولم ألتفت اليه ، وانصرفت لتوى ..

وكان اليوم التالى هو المرة الثانية التى بقيت فيها فى المنزل ، وقد كاد يستقر فى عزمى ألا أزوره بعد ذلك قط .. ولكنى لقيت من الشقاء فى الذهاب الى الفراش والنهوض عنه دون أن أسمع عنه شيئا قط ، ماجعل عزمى يتبدد فى الهواء حتى قبل أن يستقر تماما .. لقد بدا لى مرة ان من الخطأ القيام بتلك الرحلة ثانية ، أما الآن فقد بدا لى أن الخطأ كل الخطأ انما هو فى الامتناع عنها .. وحضر الى مايكل السائس ليسألنى هل يسرج « مينى » ، فأجبته بالايجاب ، وكنت أعد نفسى والمهر يحملنى فوق التلال ، قائمة بواجب لامناص لى من ادائه .. وقد اضطررت الى المرور أمام النوافذ الأمامية فى

طريق الى الفناء ، اذ لم يكن ثمة جدوى من اخفاء حضورى .

ورأتني زيللا أسير نحو البهو، فقالت : « ان السيد الصغير فى حجرة الجلوس .. »

ومضيت الى تلك الحجرة ، فاذا ايرنشو هناك كذلك . ولكنه غادرها على الفور .. وكان لينتون يجلس فى المقعد الكبير مغمض العينين ، شبه نائم .. فسرت نحو المدفأة ، ثم بدأت أقول فى لهجة رصينة ، عنيت بأن يبدو فيها صدق ما اقوله الى حد ما :

ـ هذا آخر لقاء بيننا يا لينتون ، مادمت لا تميل الى ، وما دمت تظن أننى لا أحضر الا بقصد الاساءة اليك ، وتزعم اننى أفعل ذلك فى كل مرة .. فليقل كل منا للآخر «وداعا» ، وعليك أن تخبر مستر هيثكليف بأنك لا تضمر اية رغبة فى رؤيتى ، وان عليه أن يكف عن اختلاق المزيد من الأكاذيب عن هذا الأمر ..

فأجاب :

ـ اجلسى يا كاثرين ، واخلعى قبعتك .. انك تلقين من السعادة أكثر مما ألقاه ، ولذلك ينبغى لك ان تكونى أفضل منى وأحسن خلقا .. ان أبى ينسب الى من العيوب، ويظهر نحوى من الازدراء مايكفى لأن يجعل من الطبيعى ان يتملكنى الشك فى نفسى ! .. اننى أشك فيما اذا لم أكن تافها حقيرا بالقدر الذى لايفتأينعتنى به ؟.. وعندئذ أشعر بالحنق والمرارة، فأمقت الناس جميعا .. اننى أكاد أكون دائما تافها حقيرا ، سىء الخلق ، خبيث النفس .. وفى وسعك ، اذا شئت ، أن تقولى لى وداعا .. فأنت بذلك سوف تتخلصين من شىء يزعجك وتضيقين به .. ولكننى لا أريد منك يا كاثرين

الا أن تكونى عادلة معى .. وصدقينى أننى أود لو اننى كنت فى مثل رقتك ، وحنانك ، وطيبتك .. أود ذلك بكل قواى وعن رضى واختيار ، دون أن أجاريك فى سعادتك وصحتك .. وصدقينى أن طيبتك معى ورفقك بى قد جعلنى احبك حبا عميقا ، أكثر مما لو كنت قد نلت حبك عن جدارة واستحقاق .. ومع أننى لا أستطيع ، وليس فى قدرتى ، أن أخفى عنك طبيعتى المشاكسة ، فأننى أشعر بالأسف من ذلك ، واندم عليه .. وسوف أظل آسفا نادما حتى الفظ أنفاسى الأخيرة !

أحسست بأنه يقول الحقيقة ، وأحسست بأننى يجب أن أصفح عنه .. ومع أنه سوف يتشاجر معى ، فى اللحظة التالية ، فان من واجبى أن أمنحه المزيد من الصفح والتسامح .. وعقد الصلح بيننا ، ولكن بمداد من الدموع ظللنا نذرفه معا بقية الوقت الذى مكثته ، وان لم يكن كله دمع الحزن والأسف ! .. ومع ذلك فقد أسفت لأن لينتون كانت له هذه الطبيعة المعوجة .. فانه لن يريح اصدقاءه قط ، لا ولن يريح نفسه !

وكنت اذهب معه الى البهو دائما ، منذ تلك الليلة ، لأن أباه عاد من رحلته فى اليوم التالى .. وفى تلك المدة كلها ، لم نقض من الأمسيات السعيدة المرحة المليئة بالأمل الا ثلاثا !.. أما باقى زياراتى فكانت جميعها كئيبة مليئة بالهموم، بين انانيته ومشاكسته حينا، وبين اوجاعه واسقامه أحيانا .. ولكننى تعلمت أن أحتمل الأولى بمثل الصبر والأناة اللذين احتمل بهما الثانية ..وكان مستر هيثكليف يتجنبنى عامدا ، فلم اره طوال هذه المدة الا مرة واحدة .. فقد ذهبت يوم الأحد الماضى مبكرة عن عادتى ، فسمعته

يسلق لينتون بألسنة حداد على مسلكه معى فى الليلة السابقة وهو شىء لا ادرى كيف عرفه ، الا أن يكون يسترق السمع علينا .. كان مسلك لينتون ، فى الحقيقة والواقع ، مثيرا يبعث على الحنق والسخط .. ولكن ، مهما يكن من أمر ، فذلك أمر لا يخص أحدا سواى .. وهذا ما قلته لمستر هيثكليف عندما اقتحمت الحجرة وقطعت عليه محاضرته القاسية .. وعندئذ انفجر مقهقها ، ثم غادر الحجرة وهو يبدى سروره لأننى نظرت الى الأمر هذه النظرة .. ومنذ تلك الليلة طلبت الى لينتون أن يجعل تذمره وسخطه المرير همسا !

وها أنت قد علمت كل شىء الآن يا ايلين .. ولن يمكن منعى من الذهاب الى « مرتفعات ويذرنج » الا على انقاض سعادة شخصين ، فى حين أنك لو وقفت موقفا سلبيا ولم تفضى لأبى بهذا السر ، فان ذهابى لن يضير أحدا أو يسىء اليه .. انك لن تخبريه ، أليس كذلك ؟ .. ولو فعلت لكان عملك قاسيا خلوا من الرحمة !

فأجبتها :

ـ ان الأمر يحتاج الى دراسة وتفكير يا مس كاثرين ، وسوف أقطع برأى فيه غدا .. أما الآن ، فسوف اتركك لتستريحى ، واذهب لأمعن الفكر فيه ...

وقد فكرت فيه حقا ، ولكن بصوت مسموع أمام سيدى .. فما كدت أغادر حجرتها حتى مضيت اليه قدما ورويت له القصة بحذافيرها ، لم أغفل منها سوى أحاديث الفتاة مع ابن عمتها ، وسوى ذكر هيرتون ، فلم يجر اسمه على لسانى بكلمة .. واستبد القلق والكرب بمستر لينتون ، أكثر مما أظهره أمامى .. وفى الصباح علمت كاثرين بخيانتى لها وافشاء سرها ، وعلمت كذلك بأن زياراتها الخفية لابن عمتها

قد قضى عليها نهائيا .. وعبثا راحت تبكى وتحتج على هذا القرار ، وتتوسل الى أبيها أن يشفق على لينتون ، فكان كل ما نالته منه لتهدئتها أن وعدها بأن يكتب الى لينتون ويصرح له بالحضور الى « الجرانج » كلما شاء ، ولكن عليه ان يفهم بجلاء أنه ما من سبيل لذهاب كاثرين الى «مرتفعات ويذرنج» بعد ذلك .. ولعله لو علم حقيقـة حالة ابن أخته النفسية والصحية، لوجد من الملائم أن يضن عليها حتى بهذه الترضية اليسيرة ..

الفصل الخامس والعشرون

قالت مسز دين تتابع رواية القصة :

وقعت هذه الحوادث ، يا سيدى ، فى الشتاء الماضى ، فلم يكد يمر عليها عام بأكمله .. وما خطر لى على بال ، فى الشتاء الماضى ، أننى سوف أجلس بعد انقضاء اثنى عشر شهرا ، الى شخص غريب عن الأسرة لأسليه بقصص أفرادها .. ومع ذلك فمن يدرى الى متى ستظل غريبا عنها ؟ .. انك من الشباب وصغر السن بحيث لا يخلق بك أن تظل دائما تعيش وحدك فى عزلة وانطواء .. ثم انه ليخيل الى ، على وجه ما ، انه ما من أحد يرى كاثرين لينتون ويستطيع أن يقاوم حبها فى نفسه !.. أنت تبتسم الآن ، ولكن لماذا يبدو عليك الاهتمام والحيـوية كلما أتكلم عنها ؟ .. ولمـاذا طلبت الى أن اعلق صورتها فوق المدفأة فى حجرتك ؟ .. ولماذا ؟

فصحت بها مقاطعا :

ـ كفى يا صديقتى الطيبة ! .. قد يكون من المحتمل جدا اننى سوف أقع فى حبها ، ولكن هل يمكن أن تحبنى هى ؟ ..

اننى أشك فى ذلك الى حد بعيد يجعلنى لا أجرؤ على المخاطرة بهدوئى وسكينتى جريا وراء الاغراء .. ثم اننى لست من هذه الديار. اننى من العالم الزاخر بالعمل وبالناس، ولا بد لى من العودة الى أحضانه .. فهيا امضى فى حديثك، واخبرينى هل أطاعت كاثرين أوامر والدها ؟

فاستتلت مدبرة المنزل تقول :

ـ نعم .. فان حبها له كان لا يزال أقوى عاطفة تغمر قلبها .. وقد تحدث اليها أبوها فى غير غضب أو انفعال .. بذلك الحنان العميق لشخص يوشك أن يترك كنزه وسط المخاطر والاعداء، حيث تظل كلماته الخالدة هى المعين الوحيد الذى يمكن أن يخلفه لها .. ومع ذلك فقد سألنى بعد أيام قليلة :

ـ شد ما أود أن يكتب لنا ابن أختى او يزورنا، يا ايلين ! .. ولكن اخبرينى برأيك فيه، بصراحة واخلاص .. هل تحسنت حالته ؟ .. أو هل هناك أمل فى تحسنها عندما يغدو رجلا ؟

ـ انه مفرط فى الرقة والضعف يا سيدى، ولا أظنه يعيش حتى يبلغ مبلغ الرجال ! .. ولكنى أستطيع أن أؤكد لك شيئا واحدا، هو انه لا يشبه اباه فى شىء .. ولو شاء سوء الطالع أن تتزوج مس كاثرين منه، فلن يتمرد عليها أو يخرج عن طاعتها الا اذا كانت شديدة التسامح معه الى حد البلاهة ! .. وعلى أية حال، فان أمامك، يا سيدى، فسحة من الوقت لتزداد معرفة به ولترى ان كان يصلح زوجا لها، فما زالت أمامه أعوام أربعة ـ او تزيد ـ حتى يبلغ سن الزواج ..

فتنهد ادجار، ومشى الى النافذة متثاقلا، ثم راح يتطلع بأنظاره ناحية كنيسة « جيمرتون » .. وكنا وقتئذ بعد ظهر أحد الأيام التى ينتشر فيها الضباب، ولكن شمس فبراير

كانت ترسل ضياء خافتا بالقدر الذى استطعنا معه أن نميز شجرتى الشربين الباسقتين فى فناء الكنيسة ، والقبور المتناثرة المتباعدة ..

وما لبث أن راح يقول فى صوت خفيض، كأنه يناجى نفسه:

ـ لقد كنت كثيرا ما أبتهل الى الله أن يعجل بما لا بد من وقوعه ، ولكننى بدأت الآن أخشاه وأنفر من مقدمه ! .. وكانت ذكرى الساعة التى هبطت فيها من ذلك التل البعيد عريسا يوم زفافى ، أقل حلاوة وعذوبة من تفكيرى فى توقع حملى اليه عاجلا ، بعد شهور قليلة ـ أو ربما أسابيع ـ لأوضع داخل جوفه الموحش .. اننى كنت سعيدا كل السعادة ، يا ايلين ، مع صغيرتى كاثى ، فقد كانت خلال ليالى الشتاء وأيام الصيف أملا زاخرا بالحياة يتواثب الى جانبى .. كانت سعادتى بها لا تعادلها الا سعادتى فى الاستغراق فى التأمل وحدى بين هذه الأحجار، تحت تلك الكنيسة العتيقة ، أو راقدا ـ خلال ليالى يونيه الطويلة ـ بين الحشائش النامية فوق قبر أمها ، وكلى لهفة وحنين الى الساعة التى أوضع فيها داخل هذا القبر بدورى .. فماذا أستطيع أن افعل من اجل كاثى ؟.. وكيف ينبغى أن أتركها ؟.. اننى ماكنت لأبالى لحظة واحدة بأن لينتون هو ابن هيثكليف ، ولا بأنه سوف يأخذها منى ، لو علمت انه قادر على تعزيتها عن فقدى وتهوين المصاب عليها .. وما كنت لأبالى كذلك بأن هيثكليف قد حقق كل أهدافه وافلح حتى فى سلبى آخر ما لدى من أسباب السعادة..أما ان يكون لينتون شخصا تافها غير على جدير بها ـ مجرد اداة ضعيفة فى يد أبيه ـ فعندئذ لاأستطيع على الأمر سكوتا، ولا أسمح بأن أتركها له..ومهما يكن تصرفى من القسوة فى تحطيم روحها المرحة النشيطة ، فلا بد من أن

أثابر على جعلها حزينة مكتئبة أثناء حياتى، وان أخلفها وحيدة عند مماتى .. آه ! .. يا للعزيزة الغالية ! .. اننى لأفضل أن أسلمها بين يدى الله ، وأوسدها الثرى قبلى !

فأجبته قائلة :

ـ دع الله يتولاها برعايته يا سيدى .. واذا قدر لنا أن نفقدك يوما ـ لا سمح الله ـ فاننى بعنايته ورحمته سوف أكون لها الصديقة والناصحة حتى النهاية .. ان مس كاثرين فتاة طيبة ، لا أخاف عليها الوقوع فى الزلل عن عمد .. وان أولئك الذين يؤدون واجبهم يلقون دائما خير الجزاء أخيرا ..

وتقدم بنا الربيع ، ولكن سيدى لم يستكمل قواه ولم يستعد صحته ، مع أنه عاود القيام بجولاته فى الحديقة مع ابنته .. وكان ذلك فى حد ذاته فى رأيها ـ لقلة خبرتها ـ دليلا على نقاهته .. وكثيراً ما كانت وجنتاه تتوردان بحمرة قانية ، وعيناه تلتمعان فى بريق خاطف ، فأيقنت من تمام شفائه !

وفى عيد ميلادها السابع عشر ، لم يقم بزيارة المقبرة كعادته .. كان اليوم مطيرا ، فقلت له فى ملاحظة عابرة :

ـ لا ريب انك لن تخرج الليلة يا سيدى ؟

ـ كلا .. سوف أؤجل زيارتى هذا العام قليلا ..

وكتب ثانية الى لينتون معبرا عن رغبته الشديدة فى رؤيته .. ولو كان الفتى العليل فى حالة تسمح له بالحضور ، لسمح له أبوه بالمجىء .. لا شك فى ذلك ولا ريب .. ولكن الذى حدث هو انه ـ بناء على تعليمات أبيه طبعا ـ كتب الى خاله خطابا يوحى بأن مستر هيثكليف يعارض فى زيارته « للجرانج » ، ويقول فيه ان ذكرى خاله الشفوق ما زالت تبعث السرور فى نفسه ، وبوده أن يلقاه فى احدى جولاته ،

يوما من الأيام ، ليسعد برؤيته ، وليتوسل اليه بنفسه كى لا يظل وابنة خاله مفترقين طويلا ، هذه الفرقة القاطعة ..

كان هذا الشطر من الخطاب بسيطا ساذجا ، وهو - على الأرجح - من انشائه .. ولكن مستر هيثكليف كان يعلم انه أفصح لسانا من ابنه فى الدفاع عن صحبته لكاثرين ، فقد مضى الخطاب يقول : « لست أرجو أن تسمح لها بزيارتى هنا .. ولكن هل قدر على أن أحرم رؤيتها الى الأبد ، لأن والدى يمنعنى من الذهاب الى منزلها ، وأنت تمنعها من زيارة بيتى ؟ .. فهلا صحبتها ، بين آن وآخر ، الى طريق « المرتفعات » ، فتتيح لنا بذلك فرصة نتبادل فيها كلمات قليلة فى حضورك ؟ .. اننا لم نقترف ذنبا نستحق عليه هذا الفراق ! .. وأنت نفسك لست غاضبا منى ، وليس لديك - كما تقول - ما يثير حقدك على وكراهيتك لى ! .. فاكتب لى ، يا خالى العزيز ، رقعة رحيمة غدا ، واسمح لى بأن ألقاكما فى أى مكان تختاره « ثرشكروس جرانج » .. وفى يقينى ان لقاء بينك وبينى سوف يقنعك بأننى لست على شىء من أخلاق أبى ! .. بل انه هو نفسه يؤكد اننى ابن أختك أكثر من ان أكون ابنه ! .. ومع أن لى أخطائى التى تجعلنى غير جدير بكاثرين فانها قد صفحت عنها .. وعليك ان تصفح عنها بدورك ، من أجل خاطرها ! .. وقد سألتنى عن صحتى .. انها أحسن حالا الآن .. ولكنى طالما بقيت محروما من الأمل ، مقضيا على بالوحدة التعسة ، أو بمعاشرة أولئك الذين لم يحبونى ، ولن يحبونى قط ، فمن أين لى ان اكون سعيدا ، أو تتقدم صحتى بخطى حثيثة ؟ »

وعلى الرغم من حب ادجار للغلام ورثائه له ، فانه لم يستطع تلبية هذا الرجاء ، لأنه لم يكن قادرا على الخروج

فى صحبة كاثرين .. فكتب اليه انهم ربما استطاعوا اللقاء فى الصيف ، ولكنه يود منه فى الوقت نفسه أن يستمر فى الكتابة اليه بين الحين والآخر ، ووعده بأن يقدم له ، فى خطاباته ، كل ما فى وسعه من النصح أو راحة البال ، لعلمه بمركزه العسير وسط عائلته .. وقد استجاب لينتون لرغبة خاله .. ولو انه كان حرا غير مقيد فى كتابته ، لكان من الأرجح أن يفسد كل شىء بملء خطاباته بالشكوى والنحيب ! .. ولكن أباه كان يرقبه بعين لاتغفل، وكان يصر - بطبيعة الحال - على أن يرى كل كلمة يكتبها سيدى اليه او يكتبها لينتون لخاله .. وهكذا فانه بدلا من أن يحشو خطاباته بآلامه وهمومه الشخصية العجيبة ، وهى التى لا تفتأ تتخذ فى أفكاره أعلى منزلة ، فقد راح يردد نغمة واحدة لا يحول عنها ، هى ذلك الحكم القاسى بأن يظل محروما من صديقته وحبيبته .. وكان يلمح فى رفق الى واجب مستر لينتون بالسماح له بلقاء قريب ، والا خشى أن يكون قاصدا خداعه بالوعود المعسولة الجوفاء !

وكانت كاثى خير حليف له فى الدار، فاستطاع كلاهما أخيرا أن يقنعا سيدى بالسماح لهما بنزهة يقومان بها معا مرة كل أسبوع ، راكبين او ماشيين ، فى حراستى ، وفى البرارى القريبة من الجرانج .. فقد حل شهر يونيه وهو ما يزال يذوى ويزداد ضعفا .. وكان يدخر فى كل عام شطرا كبيرا من دخله لتكون منه ثروة لسيدتى الصغيرة ، ولكنه كان ، مع ذلك ، يحس رغبة طبيعية فى أن تستعيد منزل أجدادها ، أو على الأقل تعود اليه عما قريب .. وكان يعتقد ان املها الوحيد فى تحقيق ذلك انما هو بزواجها من وريثه .. فلم

تكن لديه أية فكرة عن سير الفتى نحو النهاية بخطى حثيثة ، بل بأسرع مما كان يسير هو .. وما من أحد كانت لديه هذه الفكرة ، كما أعتقد .. فلم يدع الطبيب لزيارة « المرتفعات » قط ، ولم يكن بيننا من يرى هيثكليف الشاب حتى ينبىء بحالته .. أما أنا فقد بدأت ، من جانبى ، اعد تشاؤمى السابق كاذبا ، وتصورت انه ، ولا ريب ، أصبح الآن يفيض صحة وانشراحا ، لكثرة ما ذكره عن الركوب والنزهة بين البرارى ، وما بدا من تلهفه على متابعة آماله نحو هدفه المنشود .. فلم أتصور البتة أن والدا يمكن أن يعامل ولده المحتضر بمثل ذلك الطغيان الرهيب وتلك القسوة الشريرة التى علمت فيما بعد أن مستر هيثكليف كان يعامله بها ، ليرغمه على هذه اللهفة المصطنعة .. وكان يضاعف جهوده وقسوته ، كلما بدت له خططه الجشعة ، وطمعه المجرد من الشعور ، يهددهما الموت بالفشل والانهيار !

الفصل السادس والعشرون

كان الصيف قد جاوز عنفوانه ، عندما وافق ادجار - كارها - على تحقيق رجائهما ، فخرجت وكاثرين راكبتين جوادينا فى أول رحلة لها للقاء ابن عمتها .. وكان يوما شديد الجهامة احتبس فيه الهواء، وغامت الشمس، غير أن السحب المرقطة الرقيقة لم تكن تنذر بالمطر .. وكان موعدنا عند علامة الارشاد الحجرية فى مفترق الطرق ، ولكننا عندما وصلنا الى هناك وجدنا غلاما من الرعاة فى انتظارنا ، وقد وفد رسولا ليقول لنا :

- ان السيد لينتون موجود الآن على ذلك الجانب الآخر

ناحية « المرتفعات » ، وسيكون عظيم الامتنان لكما اذا تقدمتما قليلا ..

فغمغمت قائلة :

ـ اذن فقد نسى السيد لينتون أول شرط من شروط خاله وأوامره .. لقد طلب الينا أن نبقى فى حدود أرض « الجرانج » وها نحن نوشك على اجتيازها لأول وهلة ..

فأجابت رفيقتي :

ـ حسنا .. سوف ندير رؤوس الجياد عندما نصل الى لينتون ، وسوف نجعل نزهتنا بذلك صوب المنزل !

فلما بلغنا مكانه ، وكان لا يكاد يبعد عن باب داره بأكثر من ربع ميل ، لم نجد معه جوادا ، فاضطررنا الى الترجل ، وتركنا جوادينا يرعيان الكلأ .. وكان راقدا فوق العشب ينتظر اقترابنا ، ولم ينهض من مضجعه حتى أصبحنا على بعد بضع ياردات منه ، وعندئذ مشى نحونا فى ضعف واسترخاء ، وكان يبدو شديد الشحوب بحيث لم أملك الا أن أصيح فى عجب :

ـ ما هذا ياسيدهيثكليف ؟.. انك لست فى حالة تسمح لك بالتجول بين البرارى هذا الصباح .. شد ما تبدو مريضا !

وكانت كاثرين ترمقه فى دهشة وأسى .. وبدلت صيحة الفرح التى كانت توشك على أن تنطلق من شفتيها ، الى صيحة قلق وانزعاج ، والتهنئة التى كانت توشك على أن توجهها اليه لهذا اللقاء الذى طال ارتقابه ، الى سؤال وجهته اليه فى لهفة وقلق عما اذا كان يجد نفسه أكثر سوءا من المعتاد

.. فغمغم قائلا :

ـ كلا .. بل أحسن كثيرا ..

وكان لاهث الأنفاس ، كثير الارتعاش ، وظل ممسكا بيدها كأنما كان بحاجة الى الاستناد اليها ، بينما كانت عيناه الزرقاوان الواسعتان ترمقانها بنظرات شاردة ، فى خجل واعياء .. وكانت التجاويف التى كانت تحيط بهما قد أحالت تلك النظرة الواهنة - التى كانت لهما ذات يوم - الى نظرة ضالة شاحبة ..

وعادت بنت خاله تقول فى الحاح :

- ولكنك ازددت سوءا عما كنت عندما رأيتك آخر مرة ، وازدادت هزالا ، و ..

فقاطعها فى عجلة :

- اننى متعب .. والجو اليوم حار لا يسمح لنا بالمشى ، فدعينا نجلس هنا .. ثم اننى أشعر بالمرض فى الصباح ، ويقول أبى ان ذلك يرجع الى سرعة نموى !

فجلست كاثى دون أن يبدو عليها الاقتناع بما يقول ، أما هو فقد اضطجع بجانبها .. وأرادت أن تجاهد فى سبيل اشاعة جو من المرح حولهما ، فقالت :

- ان هذه تشبه الجنة التى تنشدها .. فهل تذكر اليومين اللذين اتفقنا على أن نقضيهما فى المكان وعلى النحو الذى يراه كل منا أكثر بهجة وسرورا ؟ .. ان هذه هى جنتك أنت بلا جدال ، لولا السحب التى تحجب وجه السماء ، ولو انها رقيقة لينة .. وذلك أفضل من وهج الشمس الساطعة .. ولكنك ، اذا استطعت ، سوف تركب معى فى الأسبوع القادم الى حدائق « الجرانج » لترى جنتى أنا ..

ولم يبد على لينتون ما يدل على تذكره شيئا مما كانت تتحدث عنه ، وكان من الواضح أنه يلقى عناء عظيما فى

احتمال أى نوع من الحوار ومتابعته .. كان عدم اهتمامه بالموضـوعات التى طرقها ، وعجزه عن المســاهمة بدوره فى الترويح عنها ، من الوضوح بحيث لم تستطع اخفاء امتعاضها وضيقها . فلقد أصاب شخصه ومسلكه تبدل شامل غريب غير واضح المعالم .. كانت المشاكسة التى تطمع فى الملاينة الى حد التدليل قد تركت مكانها فيــه الى نوع من البــلادة والجمود وتراخى الشـعور .. أصــبح فيه القليل من ذلك الخلق المشاغب لطفل يعمد الى الاثارة والاغاظة حتى يلاطفه الناس ويتملقوه ، والكثير من تلك الكآبة والهموم المكبوتة التى تلازم شخصا عليلا لا يرجى له شفاء فيرفض العزاء والترويح ، ويعد طرب الآخرين ومرحهم اهانة له .. وقد تبينت كاثرين - كما تبينت - انه يعتبر احتماله لصحبتنا عذابا وعقابا ، لا فضلا وعطفا ، فلم تتوان عن اقتراح الرحيل فى الحال .. وعلى غير ما كنا نتوقع ، أثار هذا الاقتراح لينتون من غيبوبته ، ودفع به الى حالة غريبة من الانفعال ، وراح يتطلع نحــو « مرتفعات ويذرنج » فى ذعر وهلع ، وهو يتوسل الى كاثرين أن تبقى معه ولو نصف ساعة آخر .. فقالت :

- ولكنى أظن انك سوف تكون اكثر راحة فى منزلك عنك فى الجلوس هنا .. ثم اننى لا أستطيع تسليتك اليوم ، كما أرى ، بقصصى وأناشيدى وحديثى .. فقد ازددت عنى عقلا ورزانة خلال هذه الشهور الستة ولم تعد تتذوق لهوى ومرحى .. أما اذا كان فى استطاعتى أن أرفه عنك ، فانى مستعدة للبقاء عن طيب خاطر ..

فأجاب :

- بل امكثي حتي تنالي شيئا من الراحة .. ولا تظني أو



« وجرت كاثى ، لا نحو لينتون ، وانما نحوى .. فركعت أمامى ، وأراحت وجنتها الملتهبة فى حجرى ، وهى تنشج نشيجا عاليا .. أما ابن عمتها ، فقد كمن فى ركن الاريكة هادئا كالجرذ ... »

(صفحة ٤١٩)

تقولى يا كاثرين اننى فى حالة بالغة السوء .. فالجو الثقيل والحرارة الشديدة هما اللذان يجعلاننى أبدو متبلد الحس خاملا .. ثم اننى مشيت قبل مقدمك قدرا يفوق طاقتى .. فهل لك أن تخبرى خالى بأنى فى صحة لا بأس بها ؟

فقالت سيدتى الصغيرة متعجبة من اصراره على توكيد ما يبدو للعيان كذبا صراحا :

— سوف أخبره بأنك الذى تقول ذلك يا لينتون .. فانى لا أستطيع أن اشهد بأنك كذلك حقا ..

فاستطرد يقول متجاهلا نظراتها المتحيرة :

— وتعالى الى هنا يوم الخميس القادم ثانية .. وقدمى لخالى شكرى وامتنانى على سماحه لك بالحضور .. شكرى الخالص العميق يا كاثرين .. و.. واذا حدث أن قابلت والدى وسألك عنى ، فلا توحى اليه بأننى كنت معك صامتا بليد الفهم .. ولا تظهرى أمامه كئيبة منكسرة الخاطر ، كما تلوحين الآن .. انه سوف يغضب غضبا شديدا ..

فصاحت كاثرين وقد حسبت انها ستكون هدف هذا الغضب :

— اننى لا أبالى بغضبه قط ..

فقال ابن عمتها ، مرتعدا :

— ولكنى أبالى به كثيرا .. فلا تثيريه ضدى يا كاثرين ؛ لأنه شديد القسوة والصرامة ..

فتدخلت سائلة :

— أهو قاس معك يا سيد هيثكليف ؟ .. هل أضجرته الرحمة وسئم التسامح ، فانقلبت كراهيته السلبية الى ايجابية ؟

فنظر الى لينتون، ولكنه لم يجب .. ولبثت كاثرين جالسة بجانبه عشر دقائق أخرى ، كانت رأسه خلالها تسقط فوق صدره كشخص غلبه النعاس ، لا يتكلم ولا ينطق الا بأنين مكتوم من الألم أو الاجهاد ، حتى ملت كاثرين تلك الجلسة فقامت تنشد العزاء فى البحث عن حبات التوت البرى ، وتشركنى معها فى ثمار بحثها ، دون أن تعرض شيئا منها عليه ، لأنها رأت بنفسها أن أية محاولة لتنبيهه لن تجدى الا فى اضجاره واغضابه !

وأخيرا همست فى أذنى قائلة :

ـ هل انقضى نصف الساعة يا ايلين ؟ .. اننى لا أدرى لماذا ينبغى أن نبقى بعد ذلك ، فهو مستغرق فى النوم ، كما أن أبى يتعجل عودتنا الى الدار ..

ـ حسنا .. لا يجب أن نتركه نائما ، فاصبرى حتى يستيقظ ، ودعى عنك هذه العجلة .. لقد كنت تتحرقين شوقا الى الخروج للقائه ، وهأنذى أرى اشتياقك لرؤية لينتون المسكين قد تبخر وتبدد سريعا !

فأجابت كاثرين :

ـ ولكن لماذا طلب أن يرانى ؟ .. لقد كان فى طباعه السابقة من سوء الخلق والمشاكسة أحب الى نفسى منه فى الحالة الغريبة التى غدا عليها الآن .. ان الأمر ليبدو كما لو كان الحاحه فى لقائى مهمة أرغم على أدائها خوفا من تقريع أبيه وانتهاره اياه .. ولكنى لا يمكن أن أحضر لمجرد أدخال السرور على قلب مستر هيثكليف الأب مهما تكن لديه من بواعث لارغامه لبنتون على مكابدة هذا العذاب .. وانى ، وان كنت مسرورة لتحسن صحته ، الا اننى حزينة لأنه غدا أقل ظرفا، بل أقل انعطافا نحوى الى حد بعيد ..

فقلت :

— هل ترين اذن أنه أحسن صحة ؟

— نعم .. لأنه كان دائما يولي آلامه وأوجاعه أعظم اهتمام ، كما تعلمين .. انه ليس فى صحة طيبة كما طلب الى أن أقول لأبى ، ولكنه أحسن حالا فيما يبدو ..

— هذا ما اختلف عنك فيـه يا مس كاثى .. فانى أراه أسوأ بكثير ..

وفى تلك اللحظة ، أفاق لينتون من نعاسه مذعورا مشدوها ، يسأل فى لهفة هل نادى أحد باسمه ، فقالت كاثرين :

— كلا ، ما لم تكن سمعته فى الحلم ! .. ولكننى لا أستطيع أن أتصور كيف يمكنك ان تغفو خارج منزلك ، ونحن ما زلنا فى الصباح ..

فقال لاهثا ، وهو يتطلع الى قمة التل المتجهمة فوقنا :

— ظننتنى سمعت صوت أبى .. هل أنت واثقـة من أن أحدا لم يتكلم ؟

فأجابته ابنة خاله :

— واثقة تماما .. وكل ما فى الأمر اننى كنت أجادل ايلين فى شأن صحتك .. فهـل ازددت قوة حقا عما كنت عنـد افتراقنا فى الشتاء يا لينتون ؟ .. اذا كان الأمر كذلك ، فانى واثقة من أن شيئا واحدا لم يزدد قوة ، وهو تقديرك لى !.. تكلم .. هل أنت أحسن حالا حقا ؟

فتدفقت الدموع من عينيه وهو يتمتم :

— نعم .. نعم .. اننى كذلك ..

وكأنما كان لا يزال مأخوذا برهبة ذلك الصوت الخيالى ، اذ راحت أنظاره الحائرة تجوب الانحاء نحونا ليكتشف مكان

المنادى .. وعندئذ نهضت كاثرين قائلة :

ــ كفانا هذا اليوم ، ولنفترق الآن .. غير أنى لا أخفى عليك أن لقاءنا قد أحزننى وخيب آمالى .. ولكن لن أقول ذلك لأحد سواك، دون ان يكون ذلك لخوفى من مستر هيثكليف !

فغمغم لينتون مرعوبا :

ــ صه ! .. اسكتى بحق السماء ، فانه قادم !

ثم تعلق بذراع كاثرين ، محاولا ابقاءها معه .. ولكنها اذ سمعت ما قاله ، اسرعت تخلص نفسها من يده ، ثم صفرت لمهرها الذى اسرع يلبى النداء ككلب مطيع ، ووثبت فوق ظهره ، وهى تصيح :

ــ سأكون هنا يوم الخميس القادم ، فالى اللقاء .. اسرعى يا ايلين !

وهكذا خلفناه وهو لا يكاد يحس برحيلنا ، اذ كان مستغرقا فى التوجس من اقتراب أبيه ..

وقبل أن نصل الى المنزل ، كان سخط كاثرين قد لان حتى غدا شعورا امتزجت فيه الحيرة بالأسف والرثاء ، وأخذت تتراوحها شكوك غامضة قلقة نحو ظروف لينتون الحالية ، سواء الجسمانية أو العائلية .. ولقد شاركتها هذه الشكوك ، ولو اننى أشرت عليها بكتمان الأمر ، والتريث حتى تهيىء لنا رحلتنا القادمة أسباب الحكم على الأمور ..

وسألنا سيدى بيانا عن رحلتنا ، فنقلت اليه كاثرين شكر ابن أخته وامتنانه ، ومست حوادث باقى الرحلة مسا رقيقا .. كذلك أجبت على أسئلته بردود غامضة ، فلم اكن اعرف ما يجب أن أخفيه ، وما يجب أن اكشف عنه الحجاب !

الفصل السابع والعشرون

انصرمت أيام سبعة، كان كل منها يترك أثرا لمروره بالتبدل السريع الذى طرأ على حالة ادجار لينتون .. واصبحت الساعات تتسابق الآن فى غزواتها لصحته ، بعد أن ظلت الشهور الماضية تنسج خيوطها على مهل للقضاء عليه .. وكنا نمني أنفسنا بأن تظل كاثرين جاهله لحالة أبيها ، ولكن روحها الحساسة أبت أن تظل سادرة فى خداعها لنفسها ، فأدركت حقيقة الأمر فى أعماقها ، وانشغل بالها بذلك الاحتمال المروع الذى أخذ يستكمل تحوله الى حقيقة واقعة .. فلما أقبل يوم الخميس ، لم يطاوعها قلبها على ذكر شيء عن نزهتها المرتقبة ، ولكنى توليت ذكر الأمر أمام سيدى ، فأذن لى بأن أرغمها على الخروج ، لأن غرفة سيدى ومكتبته التى كان يمكث بها فترة يسيرة كل يوم — الفترة اليسيرة التى يحتمل فيها مشقة الجلوس — كانتا قد أصبحتا دنياها بأسرها .. كانت تحقد على كل لحظة تحرمها من الانحناء فوق وسادته أو الجلوس الى جانبه .. وعلا وجهها الشحوب والامتقاع من الحزن ومن السهر على راحته .. حتى لقد سر سيدى بالسماح لها بالذهاب الى ما كان يمنى نفسه بأن يكون تغييرا سعيدا للمناظر المحيطة بها ، والوسط الذى تعيش فيه ، وقد وجد الراحة والعزاء فى الأمل الذى راوده من أنه لن يتركها وحيدة تماما بعد مماته ..

وكانت لديه فكرة ثابتة ، استطعت أن أستشفها من الملاحظات العديدة التى أفلتت من لسانه ، وهى أنه ما دام ابن أخته يشبهه جسما وشكلا فلا شك فى انه يشبهه روحا وعقلا ، اذ كانت خطابات لينتون الصغير لا توحى بشيء ، أو

بأقل القليل ، عن خلقه المعيب ! .. أما أنا فقد أحجمت ، فى ضعف مغتفر ، عن مكاشفته بالحقيقة، وساءلت نفسى : أية جدوى يمكن أن تكون فى ازعاج ساعاته الأخيرة بمعلومات ليست له القوة أو الفرصة على أن يتخذ لها موقفا ايجابيا ..

وأرجأنا نزهتنا الى بعد الظهر .. وكان يوما ذهبيا من أيام شهر أغسطس ، وكل نسمة تهب فيه من ناحية التلال مليئة بالحياة حتى ليخيل اليك أن أى امرىء يستنشقها ويكون مشرفا على الموت ، فسوف تبعث فيه الحياة من جديد ..

وكان وجه كاثرين أشبه بالمنظر الذى يمتد امامنا ! .. تتتابع عليه الظلال والشمس المشرقة ، فى سرعة وعجلة .. ولكن الظلال كانت أطول أمدا ، على حين كان الاشراق عابرا عجولا ، وكأن قلبها الصغير المسكين لا يفتأ نادما على تلك اللحظات العابرة التى يتناسى فيها همومه ومشاغله ..

وجدنا لينتون يرقب مجيئنا فى نفس البقعة التى اختارها أول مرة .. فترجلت سيدتى عن مهرها ، وقالت لى انها عازمة على البقاء فترة وجيزة ، ومن الأفضل أن أظل راكبة وأن أمسك بمقود جوادها .. ولكنى أبيت ذلك ، فما كنت لأخاطر بترك وديعتى تغيب عن أنظارى لحظة واحدة .. وهكذا رحنا نرقى المرتفع المعشوشب معا ، حيث تلقانا السيد هيثكليف بمزيد من اللهفة والانتعاش هذه المرة .. ولكنها لم تكن لهفة السرور ، أو لهفة الشوق ، وانما كانت تبدو أشبه بالفزع والذعر ..

وابتدرنا قائلا ، وهو ينطق فى صعوبة :

ـ لقد تأخرت كثيرا ! .. وظننت أنك لن تأتى .. ألم يشتد المرض على أبيك ؟

فصاحت كاثرين ، وهى تطبق فمها على عبارات التحية التى كانت تهم بها :

ـ لماذا ، بربك ، لا تكون صادقا صريحا ؟ .. ولماذا لا تقول مباشرة انك لا تريدنى ؟ .. ان أمرك عجيب يا لينتون ، فهذه هى المرة الثانية التى تأتى بى فيها الى هنا عن عمد ، لا لسبب الا جلب الألم والأسى الينا معا ..

فارتجف لينتون ونظر اليها نظرة طويلة ، فيها ضراعة وفيها حياء .. ولكن صبر ابنة خاله لم يكن ليتسع لاحتمال مسلكه الغامض ، فقالت :

ـ ان والدى مريض جدا .. فلماذا انتزعتنى من جوار فراشه ؟ .. ولم لم تبعث الى لتحلنى من وعدى ، عندما كنت تتمنى ان انكث به ؟ .. هيا .. أريد تفسيرا لكل ذلك الآن .. فان اللعب واللهو والعبث أشياء لم يعد لها مكان فى فكرى ، ولم يعد فى وسعى الآن ان ارعى رياءك فى خضوع ومذلة ..

فغمغم قائلا :

ـ ريائى ؟ .. أين ريائى هذا ؟ .. بحق السماء يا كاثرين ، لا تدعى الغضب يتملكك هكذا ! .. لك أن تحتقرينى كيفما تشائين ، فانى تعس جبان حقير .. وانى أستحق المزيد من التقريع والتأنيب ، ولكنى أتفه من أن أثير غضبك .. امقتى والدى وابغضيه ، وابقى لى الاحتقار والازدراء !

فصاحت كاثرين فى غضب وانفعال :

ـ هراء ! .. وأنت غلام معتوه أبله ! .. انظرى .. انه يرتعد كما لو كنت أنوى حقا ان امسه ! .. كلا يا لينتون ،

لا حاجة بك الى أن تتعجل الاحتقار ، فان أى امرىء يحتفظ لك به تحت أمرك عند الطلب ! .. انهض ، فسوف أعود الى منزلى .. لقد كان من الجنون حقا اجتذابك من جوار الموقد ، زعما بأننا .. ولكن ما الذى زعمناه ؟ .. دع طرف ثوبى ! .. واذا كنت قد رثيت لك واشفقت عليك لبكائك وما يبدو عليك من آثار الفزع الرهيب ، فان الأخلق بك أن تترفع عن شفقتى هذه ! .. قولى له يا ايلين كم فى مسلكه هذا من هوان شائن !.. انهض، ولا تنزل بنفسك الى مرتبة الزواحف الخسيسة ! .. لا .. لا تفعل هذا !

فقد ارتمى لينتون بهيكله المنهار الأعصاب على الأرض ، وراح يتمرغ تحت قدميها ، والدموع تخضل وجهه الشاحب الذى ارتسمت عليه معالم الألم الفظيع .. كان يبدو كأن فزعا مروعا يهز جسمه هزا ..

وبين شهقاته ونحيبه ، راح يقول :

ـ آه ! .. اننى ما عدت أحتمل ذلك ! .. كاثرين ! .. كاثرين ! .. اننى خائن أيضا ، ولست أجرؤ على اخبارك !.. ولكن لو تركتنى ، فسيكون مصيرى القتل .. ان حياتى بين يديك ياعزيزتى كاثرين ، وقد قلت أنك تحبيننى .. فاذاكنت كذلك حقا ، فان الأمر لن يضرك فى شىء ! .. انك لن تذهبى اذن ، يا كاثرين الجميلة ، الشفوقة ، الطيبة ؟ .. ومن يدرى فلعلك توافقين .. وعندئذ يتركنى أبى حتى أموت معك !

واذ رأت سيدتى الصغيرة ما يقاسيه من عذاب فظيع ، انحنت ترفعه من الأرض، وقد تغلب شعور العطف والتسامح القديم على غضبها وحنقها .. وازداد تأثرها وقلقها ، فقالت تسأله :

ـ أوافق على أى شىء ؟ .. على البقاء ؟ .. قل لى ما

الذى تقصده من هذا الكلام الغريب ، وسوف أبقى معك بعض الوقت .. ولكن مسلكك يناقض أقوالك ، فتحيرنى وتبلبل أفكارى .. فاهدأ وكن صريحا ، واعترف لى للتو بما يثقل قلبك .. انك لا تود الاساءة الى يا لينتون ، اليس كذلك ؟ .. ولن تدع أى عدو يؤذينى اذا كان فى وسعك أن تمنعه ، اليس كذلك ؟ .. اعتقد انك قد تكون رعديدا جبانا فى نفسك ، ولكنك لن تكون من النذالة بحيث تخون خير صديقة لك ..

فراح يعصر أصابعه الرخوة وهو يقول لاهثا :

ـ ولكن أبى قد توعدنى بشر مستطير ، وانى أخشاه .. أخشاه بفزع عظيم .. فلا أجرؤ على أن أقول شيئا ..

فقالت كاثرين فى حنان ساخر :

ـ آه .. حسنا .. اكتم سرك اذن ! .. أما أنا فلست على شىء من الجبن .. انج أنت بنفسك ، فانى غير خائفة !

فأثارت نخوتها دموعه ، وراح يبكى فى ضراوة ، ويغطى يديها الممسكتين به بقبلاته وعبراته معا .. ومع ذلك لم يستطع أن يستجمع شجاعته ليفشى ما يكتمه ..

وبينما كنت أفكر فيما عسى أن يكون ذلك السر ، واقرر فى نفسى أن كاثرين لا ينبغى ان تتألم فى سبيله او فى سبيل أحد غيره ، دون أن أحرك ساكنا ، اذا بى أسمع حفيفا بين الهيش ، فتطلعت الى يمينى ، واذا مستر هيثكليف يوشك أن يهبط فوق رؤوسنا ، قادما من « المرتفعات » .. ولم يلق نظرة واحدة على رفيقى ، مع أنهما كانا قريبين منه الى حد يجعل نحيب لينتون واضحا مسموعا فى أذنيه ، وانما نادانى فى نبرات ودودة لا أحسبه خاطب بها أحدا من الناس فى حياته

قط .. وفى ذلك الاخلاص الذى لم أملك نفسى من التشكك فيه ، قال :

ـ ما أجمل أن أراك بالقرب من منزلى يا نللى ! .. كيف حالك فى « الجرانج » ؟

ثم خفض من صوته ، واستطرد يقول :

ـ ولكن طمئنينى .. لقد شاع أن أدجار لينتون على فراش الموت ، أفلا يكون ذلك مبالغة فى خطورة مرضه ؟

ـ كلا .. ذلك صحيح تماما ، فان سيدى فى الاحتضار .. وسيكون موته أمرا محزنا لنا جميعا ، وان كان نعمة عليه ورحمة له ..

ـ الى متى يطول احتضاره ، فى رأيك ؟

ـ ومن أين لى أن ادرى ؟

فتطلع ناحية الصغيرين اللذين جمد حراكهما تحت نظراته ـ لأن لينتون كان يبدو كأنما لا يستطيع أن يجرؤ على أن يحرك اصبعا او يرفع رأسا ، كما أن كاثرين لم تستطع الحراك لأنه كان مستندا اليها متعلقا بها ـ ثم استطرد يقول لى :

ـ لأن هذا الغلام يبدو مصمما على هزيمتى ! .. وكم أكون شاكرا لخاله لو استحث خطاه وقضى نحبه قبله ! .. ولكن هل كان الجرو يلعب لعبته هذه منذ طويل ؟ .. لقد لقنته « بعض » الدروس عن البكاء والولولة .. فهل كان بشوشا فرحا مع مس لينتون عادة ؟

ـ بشوشا فرحا ؟ .. كلا .. بل كان يشكو آلامه ومتاعبه .. وعند ما رأيته ، وجدته خليقا أن يكون راقدا فى فراشه ، بين يدى الطبيب ، بدلا من أن يهيم على وجهه فوق التلال مع حبيبته !

فغمغم هيثكليف :

ـ سوف يكون كذلك بعد يوم أو اثنين .. أما الآن ..

ثم استطرد بصوت عال :

ـ انهض يا لينتـون ! .. انهض حالا ، ولا تزحف على الأرض هناك .. قم سريعا فى هذه اللحظة !

فان لينتون كان قد عاد الى الانبطاح على الأرض وقد أصابته نوبة أخرى من الفزع اليائس أحسب ان سببها نظرة أبيـه نحوه ، فلم يكن ثمـة سبب آخـر لهذه المـذلة .. وقام بمحاولات عديدة لاطاعة ابيه ، ولكن قواه القليلة الباقية كانت قد تلاشت تماما ، فسقط على الأرض ثانية وهو يتأوه متألما .. فتقدم مستر هيثكليف نحوه ، ورفعه حتى أسنده الى دغلة كثيفة من الهيش ، وهو يقول فى شراسة رادعة :

ـ لقد بدأت أغضب منك الآن ! .. واذا كنت لا تسيطر على روحك الخائرة هـذه .. آه ! .. لعنـة الله عليك .. انهض حالا !

فأجاب الغلام فى أنفاس لاهثة متلاحقة :

ـ سأقوم يا أبتاه .. فقط دعنى وحدى والا غشى على .. لقد فعلت كل ما طلبت منى أن افعله .. اننى واثق من ذلك .. وسوف تخبرك كاثرين اننى .. اننى كنت معهـا مرحا طروبا ! .. آه ! .. ابقى بجانبى يا كاثرين .. اعطينى يدك !

فقال أبوه :

ـ خذ يدى أنا ، وقف على قدميك .. والآن ؟ .. سوف تقدم لك ذراعها .. حسـنا .. انظـر اليها هى .. لعلك تتصورين يا مس لينتون اننى الشيطان نفسه ، اذ أثير مثل

هذا الفزع .. هلا تكرمت بالسير معه حتى المنزل ؟ .. سوف يرتعد خوفا اذا لمسته !

فهمست كاثرين قائلة :

ـ ولكنى لا أستطيع الذهاب معك الى «مرتفعات ويذرنج» يا عزيزى لينتون .. لقد حـرم على أبى ذلك .. انه لن يؤذيك ، فلماذا كل هذا الخوف ؟

ـ لا أستطيع أبدا أن ادخل هذا المنزل ثانية .. بل ليس لى ان ادخله بدونك !

فصاح ابوه :

ـ صه ! .. اننا سوف نحترم تمسك كاثرين بطاعتهـا لأبيها .. خـذيه أنت الى المنزل يا نللى ، وسوف أعمـل بنصيحتك واحضر له الطبيب دون امهال ..

ـ حسنا تفعل .. ولكنى يجب أن أبقى مع سيدتى .. فليست العناية بابنك من شأنى !

ـ انك شديدة الصلابة ، كعهدى بك .. ولكنك ستضطريننى الى أن أقرص الغلام ، واجعله يملأ الدنيا صراخا ، قبل أن يحرك شفقتك واحسانك !

واقترب منه ثانية ، ومد يده نحوه كأنما يريد أن يمسك بذلك المخلوق الهش الخائر .. ولكن لينتون ارتد الى الوراء مجفلا ، وتعلق بابنة خاله ، وراح يتوسل اليها أن تصـحبه الى المنزل ، فى الحاح جنونى لايحتمل اباء . وبرغم اننى كنت غير موافقة ، فاننى لم أستطع منعها من الذهاب .. وكيف كان يمكنها أن ترفض مصاحبته حقا ؟ .. اننا لم يكن فى وسعنا ، ولا فى متناول يدنا ، أن ندرك كنه ذلك الرعب الذى يملؤه .. وانما كنا نراه أمامنا ضعيفا متخاذلا تحت قبضـة

هذا الفزع الرهيب ، ولا شك ان أية زيادة عليه كانت كفيلة باصابته بالجنون ..

فلما بلغنا باب المنزل ، صحبت كاثرين العليل الى الداخل، على حين وقفت أنتظرها ريثما تقوده الى مقعد أو أريكة ، متوقعة ان تحرج على التو ، واذا مستر هيثكليف يدفعنى الى الأمام ، هاتفا :

ـ ان بيتى ليس موبوءا بالطاعون يا نللى ! .. ثم اننى أريد أن أكون كريما مضيافا اليوم .. هيا اجلسى ، واسمحى لى بأن أغلق الباب !

ولكنه لم يغلقه فحسب ، وانما أوصده بالمفتاح .. فأجفلت ، وهممت بالقيام ، ولكنه أضاف مستطردا :

ـ سوف تتناولان الشاى معى قبل عودتكما ، فاننى وحدى اليوم ، اذ خرج هيرتون ببعض الماشية الى السوق ، كما ذهبت زيللا وجوزيف فى أجازة للراحة والفسحة ! .. وبرغم اننى اعتدت هذه الوحدة ، الا أننى أفضل كثيرا أن أستمتع بصحبة لطيفة ، بين آن وآخر ، اذا تيسرت لى .. خذى مقعدك واجلسى بجانبه يا مس لينتون .. اننى أقدم لك ما لدى .. وما لدى الآن لا يكاد يستحق شرف قبولك ، ولكن لا حيلة لى فى الأمر ، فهو (الحاضر) ، وليس لدى ما أقدمه لك غيره ! .. مالها تحملق فى وجهى ! .. من العجيب اننى ينتابنى شعور وحشى حيال كل شىء يبدو خائفا منى ! .. ولو كنت قد ولدت فى مكان آخر حيث القوانين أقل وطأة ، والأذواق أقل تأنقا ، لسليت نفسى بتقطيع أوصال هذين الاثنين حيين تقطيعا بطيئا ، ولجعلت من ذلك تسلية المساء !

ثم زفر بأنفاسه ، ولطم المائدة بقبضة يده ، وهو يغمغم ساخطا :

ـ يا للجحيم ! .. شدما اكرههما !

فصاحت كاثرين ، التى لم يكن فى وسعها أن تسمع الشطر الأخير من كلامه :

ـ أننى لا أخشاك ولا أخافك !

ثم خطت متقدمة نحوه ، وعيناها السوداوان تومضان بالغضب والعزم القوى ، وقالت :

ـ اعطنى ذلك المفتاح .. سوف آخذه بنفسى ! .. اننى لن أذوق هنا طعاما أو شرابا ولو هلكت جوعا وظمأ ..

وكان هيثكليف يضع المفتاح فى يده الممدودة فوق المائدة .. فرفع أنظاره يتطلع اليها ، وقد أذهلته جرأتها ، او لعل صوتها ونظرتها قد ذكراه بالمرأة التى ورثتهما عنها .. واختطفت المفتاح ، وكادت تفلح فى اخراجه من بين أصابعه المنفرجة ، عندما أخرجته فعلتها من ذهوله ، وردته الى الحاضر ، فاستعاد المفتاح سريعا ، وقال :

ـ اسمعى يا كاثرين لينتون .. اذهبى بعيدا ، والا صرعتك أرضا ! .. وان كان ذلك يصيب مسز دين بالجنون !

ولكنها لم تعبأ بوعيده ، وأمسكت ثانية بيده المطبقة على المفتاح ، وهى لا تفتأ تردد :

ـ سوف نخرج .. سوف نخرج حتما ..

وراحت تبذل قصارى جهدها فى الانة عضلاته الفولاذية ، فلما فشلت أظافرها فى احداث اى أثر فيها ، بدأت تستخدم أسنانها الحادة استخداما بارعا .. وعندئذ رمقنى هيثكليف بنظرة جعلتنى أجمد فى مكانى ، لا أقوى على التدخل ، لحظة .. وكانت كاثرين منحنية فوق يده ، منهمكة فى اعمال أسنانها فى أصابعه ، فلم تنتبه الى التبدل الذى اعترى وجهه ، عندما فتح أصابعه فجأة ، وتركها تأخذ المفتاح من بينها ،

ولكنها قبل أن تستولى عليه تماما ، أمسك بها بيده المتحررة ثم جذبها فوق ركبته ، وانهال عليها بيده الأخرى بلطمات عنيفة مروعة فوق جانب رأسها ، وكل منها خليقة بأن تصرعها أرضا لو كانت تستطيع السقوط ..

واندفعت نحوه ثائرة ، اذ رأيت هذا البطش الشيطانى ، وبدأت أصيح به : ايها النذل .. ايها الوحش ..

ولكن أخرستنى وكزة شديدة تلقيتها فى صدرى ، وقطعت أنفاسى على رغم ما لى من قوة وصحة .. واجتمع على الألم والغضب فترنحت مرتدة الى الخلف ، وقد دارت بى الأرض ، حتى سقطت وقد أوشكت أن يصيبنى الاختناق أو ينفجر شريان فى رأسى !

وانتهى المشهد فى دقيقتين .. فرأيت كاثرين ، بعد أن أطلق سراحها ، تضع كلتا يديها فوق صدغيها ، وهى تبدو كما لو كانت غير واثقة مما اذا كانت اذناها فى مكانيهما أو انتزعتا ! .. كانت المسكينة ترتعد كقصبة فى مهب الريح ، وتستند الى المائدة فى ذهول ودهشة بالغين ..

وانحنى الوغد ليلتقط المفتاح الذى كان قد سقط على الأرض ، وهو يقول :

ـ اننى أعرف كيف أؤدب الأطفال العصاة ، كما رأيت .. والآن اذهبى الى لينتون ، وخذى راحتك فى البكاء كيفما شئت .. سوف أكون أباك غدا ـ الأب الوحيد الذى سيبقى لك بعد أيام قليلة ـ وسوف تنالين منى الكثير مما رأيت .. انك لست ضعيفة ، وفى وسعك أن تحتملى المزيد ، وستنالين جرعة منه كل يوم لو لمحت فى عينيك شيطان القحة مرة أخرى ..

وجرت كاثى ـ لا نحو لينتون ـ ولكن نحوى ، فركعت

أمامي وأراحت وجنتها الملتهبة فى حجرى ، وهى تنشج نشيجا عاليا .. أما ابن عمتها فقد كمن فى ركن الأريكة ، هادئا كالجرذ ، يهنىء نفسه بالسلامة .. بل يخيل الى انه كان سعيدا بأن التأديب حل بشخص آخر سواه !

ونهض مستر هيثكليف ، اذ رآنا جميعا واجمين مبهوتين ، فتولى بنفسه عمل الشاى فى خفه وسرعه .. وكانت الأقداح والأطباق مرصوصة على المائدة منذ البداية ، فملأها وناولنى قدحا منها ، وهو يقول :

ـ اطردى عنك الحقد والغضب ، وهيا قدمى الشاى « لدلوعتك ودلوعتى » ! .. انه ليس مسموما ، وان كان من صنع يدى ! .. أما انا فذاهب للبحث عن جواديكما ..

وكان أول ما طرأ على فكرنا ، اثر انصرافه ، أن ندبر لنفسينا طريقا للخروج من أى منفذ ، ولو قسرا .. فأسرعنا نجرب باب المطبخ ولكننا وجدناه موصدا من الخارج .. ونظرنا الى النوافذ ولكنها كانت أضيق من أن تتسع للمرور حتى لجسم كاثى النحيل .. فلما رأيت اننا سجينتان ما لنا من خلاص ، صحت بالغلام :

ـ انك تعلم ، يا سيد لينتون ، ما يسعى أبوك الشيطانى وراءه ، وسوف تخبرنا به على الفور والا ألهبت صدغيك كما فعل بابنة خالك ..

فقالت كاثرين :

ـ نعم يا لينتون .. يجب أن تخبرنا .. فقد كان من أجلك أن حضرت الى هنا ، ومن الجحود الشرير أن ترفض مصارحتنا بالحقيقة ..

فأجاب مرتاعا :

ـ اعطينى أولا قليلا من الشاى ، لأنى ظمآن ، وعندئذ سوف أخبرك بكل شىء .. ابعدى عنى يا مسز دين ، فانى لا أحب وقفتك فوق رأسى ! .. وأنت يا كاثرين ، لقد تركت دموعك تسقط فى قدحى .. اننى لن أشربه ، فأعطينى قدحا آخر !

فدفعت اليه كاثرين قدحا غيره ، وجففت دموعها ووجهها .. وشعرت بالاشمئزاز من مسلك ذلك التعس الصغير ، منذ أن أمن على نفسه ، وفارقه الفزع مما عساه يصيبه ! .. كان الذعر الذى أظهره فوق البرارى ، قد سكن وهدأ بمجرد دخوله « مرتفعات ويذرنج » .. وحدست من ذلك انه كان قد أنذر بأن يحل به أفظع العقاب اذا فشل فى ايقاعنا فى الشرك واقتيادنا الى داخل المنزل .. فلما تم له ذلك ، لم يعد لديه ثمة سبب مباشر للخوف !

واستطرد يقول ، بعد ان رشف قليلا من الشاى :

ـ ان أبى يريد أن يعقد زواجنا .. وهو يعلم ان أباك لن يوافق على زواجنا الآن .. ولكنه يخشى أن أموت اذا ارجأنا الأمر .. ولذلك فسوف نتزوج فى الصباح ، وستبقين هنا هذه الليلة .. فاذا نفذت رغبته ، فسوف تعودين الى منزلك فى اليوم التالى ، وستأخذيننى معك ..

فهتفت قائلة :

ـ تأخذك أنت معها أيها المتقلب المنافق الحقير ؟ .. أنت تتزوج ؟ .. لماذا ؟ .. ان الرجل قد أصابه الجنون ، أو يعتقد اننا بلهاء جميعا ! .. هل تتصور ان هذه السيدة الشابة الجميلة ، التى تفيض بالصحة والنضارة وطيبة القلب ، يمكن أن تتزوج من قرد صغير مشرف على الهلاك مثلك ؟! .. وهل

تراك تتعلق بفكرة أن هناك أية فتاة ـ ودعك من مس كاثرين لينتون ـ يمكن أن ترضى بك زوجا ؟.. انك تستحق الجلد بالسياط على احضارك ايانا الى هنا ، بأخاديعك الخسيسة النواحة ! .. لا تظهر الآن بهذه البلاهة بعد ما فعلت !.. والله انني لأود الآن أن أظل أهزك فى عنف ، جزاء خيانتك الحقيرة، وخدعتك السخيفة !

والواقع اننى امسكت به وهززته هزة يسيرة ، ولكنهاكانت كافية لاثارة سعاله ، ثم لجـأ الى معينه العـادى من الأنين والبكاء ، مما جعل كاثرين تنتهرنى ..

وراحت تتلفت حولها فى تمهل وامعان ، وهى تقول :

ـ كلا .. لن نبقى هنا الليلة ! .. سوف أخرج من هنـا يا ايلين ، ولو حرقت هذا الباب ..

وكانت تهم بتنفيذ وعيدها فى الحال ، عندما جفل لينتون فزعا على شخصـه العزيز ثانية ، وتعلق بها بين ذراعيـه الضعيفتين ، قائلا فى عويل :

ـ ألا تريدين ان ترضى بى ، فتنقذينى ؟.. الا تريدين ان اذهب معك الى « الجرانج » ؟ .. أواه ياعزيزتى كاثرين .. لا ينبغى لك أن تذهبى وتتـركينى الآن ! .. بل يجب أن تطيعى أبى .. يجب ان تطيعيه حتما ..

فأجابته :

ـ بل يجب أن أطيع أبى ، وانقذه من عذاب الانتظار الأليم .. أقضى الليلة كلها هنا ؟.. وماذا عساه يظن ؟.. انه سوف يقلق لغيابنا وتشتد كربته .. ولا بد لى من أن أحطم أى منفذ او احرقه حتى اخرج من هنا .. اسكت واهدأ ! .. فلست معرضا لأى خطر ! .. أما اذا حاولت منعى بالينتون .. اننى أحب أبى اكثر مما احبك ..

وكان الفزع المميت الذى ينتابه من غضب مستر هيثكليف، قد أعاد الى الغلام فصاحته وذلاقته المنبعثتين من جبنه وخوره ، حتى كادت كاثرين تنشغل به عن موقفها .. ومع ذلك ظلت تصر على وجوب عودتها لمنزلها ، ولجأت الى التوسل والاستعطاف بدورها ، محاولة اقناعه بأن يقهر آلامه وينسى أنانيته .. وفيما كانا منهمكين فى هذا الجدال دخل سجاننا ثانية ، وهو يقول :

– لقد شرد جواداكما ، ولم أجدهما ، و .. ما هذا يا لينتون ؟ .. هل عدت الى البكاء ثانية ؟ .. ما الذى كانت تفعله بك ؟.. هيا .. هيا .. يكفيك ذلك الآن ، فاذهب الى فراشك .. انك بعد شهر أو اثنين يابنى ، سوف تكون قادرا على أن تكيل لها الصاع صاعين وتثأر لنفسك من طغيانها الحالى ، بيد مليئة بالقوة !.. انك الآن تذوى وتضعف من حنينك الى الحب الخالص ، أليس كذلك ؟.. ولا شىء سواه فى هذا العالم يقض مضجعك ويهدم صحتك .. ولكنها سوف تكون لك !.. اذهب الى فراشك الآن ، ويجب أن تخلع ثيابك بنفسك ، فان زيللا لن تكون هنا الليلة .. صه !.. كف عن هذه الضجة !.. انك متى ذهبت الى حجرتك فاننى لن أقترب منك ، ولا حاجة بك الى الخوف منى .. وعلى فكرة ، فانك أجدت التصرف اليوم ، وسوف يكون من شأنى تدبير مابقى ..

وكان ينطق بهذه الكلمات ، وهو يمسك بالباب منفرجا لمرور ابنه .. أما لينتون فقد كان فى مروره يشبه تماما ما يفعله كلب صغير يشك فى أن الواقف بالباب يضمر له شرا ويرتقب فرصة مروره ليطبق الباب عليه فيهصره هصرا .. وأوصد الباب من جديد ، واقترب هيثكليف من المدفأة ، حيث كنت وسيدتى نقف صامتتين .. فتطلعت كاثرين نحوه ، ثم رفعت

يدها الى وجنتها فى حركة غريزية ، اذ كان وقوفه فى جوارها يحيى شعورا أليما فى نفسها .. وان أى شخص غيره لخليق بأن ينظر الى هذه الحركة الصبيانية فى اشفاق وتأثر ، ولكنه كشر فى وجهها ، وتمتم قائلا :

ـ آه !.. ألم تقولى انك لاتخافيننى ؟ .. انك اذن تخفين شجاعتك وراء قناع ماهر ، لأنك تبدين شديدة الفزع !

ـ اننى خائفة الآن فعلا .. لأننى اذا بقيت هنا فسيشقى والدى لغيابى .. وكيف يمكن لى ان أحتمل شقاءه وعذابه ، بينما هو .. بينمـــا هو .. آه ! .. دعنى أرجع الى منزلى يامستر هيثكليف ، وأعدك بأننى سوف أتزوج من لينتون ، لأن والدى يود أن أتزوج منه ، كما اننى احبه .. لماذا تريد ان ترغمنى على ما سأفعله عن طيب خاطر ومن تلقاء نفسى ؟ ..

فصرخت قائلة :

ـ دعيه يجرؤ على ارغامك ! .. ان فى هذا البلد قانونا ، والحمد لله ، ولو أننا فى مكان ناء عن العمران .. سوف أبلغ عنه ولو كان ابنى ، فهذه جريمة خطيرة لايسرى عليها قانون العفو !

فصاح الوغد :

ـ اخرسى .. ولتذهب صيحاتك هذه الى الشيطان ! .. اياك أن تتكلمى بعد ذلك !

ثم استطرد يقول لكاثرين :

ـ اننى يامس لينتون سوف أجد متعة عظيمة فى التفكير بأن والدك سوف يشقى بسببى .. بل سيطير النوم من عينى رضى وارتياحا .. وما كان فى وسعك أن تجدى وسيلة أضمن

لبقائك تحت سقف منزلى خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة ، خيرا من قولك لى بأن شقاء والدك وعذابه سيتبعان ذلك ! .. أما عن وعدك بالزواج من لينتون ، فاننى سأعنى بالوفاء به، لأنك لن تبرحى هذا المكان حتى ينجز هذا الوعد !

فصاحت كاثرين وهى تبكى بمرارة :

ـ ارسل ايلين اذن لتخبر أبى بأننى سالمة ، أو اعقد زواجى الآن !.. يا لأبى المسكين ! .. سوف يظن اننا فقدنا ياايلين ! .. فماذا نفعل الآن ؟ ..

فأجاب هيثكليف :

ـ لن يظن شيئا من ذلك ! .. وأنما سيظن أنكما مللتما خدمته المتواصلة ، فذهبتما بعيدا تنشدان شيئا من المتعة ! .. وليس فى وسعك أن تنكرى انك دخلت منزلى بملء اختيارك ، احتقارا لأوامره التى تحرم عليك دخوله ! .. ومن الطبيعى حقا ، أن تنشد فتاة فى مثل سنك ، بعض المتعة والترفيه ، وأن تسأم خدمة رجل مريض ، ليس الا والدها ! .. لقد انتهت أسعد أيامه ، ياكاثرين ، يوم بدأت ايامك فى الحياة .. واحسبه كان يلعنك لقدومك الى العالم (أما أنا فقد لعنتك حقا) ، فلا بأس بأن يلعنك وهو يغادره ! .. وسأشاركه هذه اللعنة . . اننى أكرهك !.. ومالى لا أفعل ؟.. ابكى وأمعنى فى البكاء ماشئت ، فسوف يكون البكاء تسليتك العظمى بعد الآن ، كما يبدو لى ! .. الا اذا كان لينتون عوضا كافيا لأية خسارة أخرى ! .. ويبدو أن والدك الملهم كان يراه كذلك ، فان خطاباته المليئة بالنصائح والعزاء كانت تسلينى كثيرا .. وفى خطابه الأخير ، كان يوصى « جوهرتى » بأن يعنى « بجوهرته » ، وأن يكون رفيقا بها عندما ينالها ! .. العناية والرفق .. انها وصايا خليقة بالآباء حقا ! .. ولكن

لينتون فى حاجة الى كل رصيده من العناية والرفق ليسبغهما على نفسه .. وفى وسع لينتون أن يؤدى دور الطاغية الصغير، فيجيد اداءه ! .. انه خليق بأن ينهض بتعذيب أى عدد من القطط لو نزعت أسنانها وقلمت مخالبها ! .. وسوف يكون فى وسعك أن تقصى على خاله أروع القصص عن رفقه وشفقته، عند ما تعودين الى منزلك ثانية !

فقلت :

ــ الآن لم تقل الا صدقا ! .. أتمم كلامك ، واشرح خلق ولدك ، وأظهرنا على ما فيه من شبه بخلقك .. وأرجو عندئذ أن تفكر مس كاثى مرتين قبل أن تتزوج من الوحش المميت !

فأجابنى :

ــ اننى لا أبالى كثيرا بالحديث عن مزاياه الحبيبة الآن ، لأنها اما أن تقبله ، أو تبقى سجينة هنا ، وانت معها ، حتى يموت سيدك .. وفى وسعى أن احجزكما هنا ، فى خفاء ، لا يعلم أحد عنكما شيئا .. فاذا شككت فى ذلك فما عليك الا أن تشجعيها على سحب كلمتها ، وعندئذ تتاح لك الفرصة كى تحكمى بنفسك ..

فقالت كاثرين :

ــ اننى لن أسحب كلمتى .. سوف أتزوج منه هذه الساعة، اذا سمحت لى بالعودة الى « ثرشكروس جرانج » بعد ذلك .. انك رجل قاس ، يامستر هيثكليف ، ولكنك لست شيطانا رجيما ! .. ولن ترضى بتدمير سعادتى الى غير رجعة ، لمجرد شفاء حقدك ، وبدافع من الشر فحسب ! .. ولو ان أبى ظن اننى تركته عن عمد ، ثم مات قبل عودتى ، فهل أطيق الحياة بعد ذلك ؟ .. لقد كففت عن البكاء ، ولكنى سوف أجثو هنا ،

عند قدميك، ولن أقوم ثانية، أو أحول عينى عن وجهك، حتى تنظر الى .. كلا .. لاتدر وجهك عنى .. **انظر الى !** .. انك لن ترى شيئا يثيرك أو يغضبك.. فأنا لا أبغضك .. ولست غاضبة لأنك لطمتنى .. ألم تحب احدا قط فى حياتك كلها يا عماه ؟ .. أبدا ؟ .. آه ! .. يجب أن تنظر الى مرة واحدة .. اننى تعسة شقية ، الى حد لا يسعك معه الا ان تأسف لحالى وترثى لى !

فصاح هيثكليف وهو يدفعها عنه فى وحشية رهيبة :

ــ ابعدى أصابعك الشبيهة بأصابع السحالى، وامشى بعيدا والا ركلتك بقدمى ! .. اننى أفضل أن تحتضننى أفعى عن أن تقربينى !.. وكيف خيل اليك، بحق الشيطان انك قادرة على خداعى وتملقى ؟ .. اننى أمقتك .. أمقتك !

وكان يهز كتفيه فى استخفاف، وينفض جسمه كأنما أصابته قشعريرة الاشمئزاز حقا ، ويرتد بمقعده الى الوراء نافرا .. ونهضت من مجلسى ، وفتحت فمى لأبدأ سيلا جديدا من السباب ، عند ما أخرسنى قبل ان أفوه بكلمة ، منذرا بأننى سوف اسجن فى احدى الغرف وحدى اذا نطقت بحرف واحد !

وكان الظلام قد بدأ يتكاثف عند ما سمعنا أصواتا تتكلم عند بوابة الحديقة ، فأسرع مضيفنا الى الخارج لايلوى على شىء .. كان يحتفظ بقدرته على التفكير ، أما نحن فقد شرد فكرنا .. وطال الحديث دقيقتين أو ثلاثا ، عاد على اثرها بمفرده ..

وكنت أقول لكاثرين :

ــ لقد ظننته ابن خالك هيرتون .. وليته يعود الآن ، فمن

يدرى لعله ينحاز الى جانبنا ..

فقال هيثكليف ، وقد سمع ماقلته :

ــ انهم ثلاثة من الخدم حضروا من الجرانج للبحث عنكما .. وكان ينبغى أن تفتحى النافذة وتناديهم !.. ولكنى أقسم ان هذه الطفلة قد سرها انك لم تفعلى .. انها سعيدة لارغامها على البقاء ، ولا شك لدى فى ذلك ..

فلما علمنا بالفرصة التى أضعناها ، أطلقنا العنان لأحزاننا ، ووجدنا ، كلانا ، فى البكاء متنفسا لآلامنا الحبيسة .. وظل صامتا بلا حراك لايعترض على نحيبنا حتى بلغت الساعة التاسعة .. وعندئذ أمرنا ان نصعد الى حجرة زيللا بالطابق العلوى ، عن طريق المطبخ .. فهمست لرفيقتى أن تطيعه ، فربما استطعنا أن نحاول الخروج من نافذتها ، أو التسلل الى احدى العليات والهرب من كوتها .. ولكن النافذة كانت ضيقة كنوافذ الدور الأرضى ، كما أن الباب المؤدى الى ألعليات كان بعيدا عن متناولنا ، لأن الحجرة أوصدت علينا من الخارج كما حدث فى الحجرة السفلى ..

ولم ترقد واحدة منا .. أما كاثرين فقد أخذت موقفها بجوار النافذة ، وظلت تحدق النظر منها وترقب الصباح فى لهفة .. وكان جوابها الوحيد على محاولاتى المتعددة باقناعها بأن تستريح قليلا ، تنهدا عميقا حسبت صدرها قد انشق منه .. وأما أنا فقد جلست على أحد المقاعد ، وجعلت اتأرجح فيه الى الأمام والى الخلف ، ورحت أنحى باللوم العنيف على نفسى ، لما فرط منى من الاخلال بواجبى مرات عديدة . وبدا لى عندئذ أن كل ما أصاب مخدومى من شقاء ومتاعب ، انما كان مبعثه تقصيرى هذا .. وانى أعلم الآن ان الأمر لم يكن

كذلك حقا ، ولكن ذلك هو ما سيطر على خيالى فى تلك الليلة المشئومة حتى لقد خيل الى أن هيثكليف نفسه كان أقل جريرة مني !

وحضر الينا هيثكليف فى الساعة السابعة ، فسأل ان كانت مس لينتون قد استيقظت ، فانطلقت تعدو نحو الباب وهى تجيب : « نعم .. نعم ! »

وعندئذ فتح الباب ، وجذبها الى الخارج وهو يقول : « تعالى اذن ! »

فنهضت لأتبعها ، ولكنه أوصد الباب دونى ، ولما طلبت اليه أن يطلق سراحى ، أجاب :

ـ صبرا .. صبرا .. سوف أرسل لك طعام الافطار بعد لحظة !

ولكنى رحت أطرق الباب فى عنف ، وأحرك المزلاج الداخلى فى صخب .. وسألته كاثرين عن سبب استمرار حبسى ، فأجاب بأن على أن أحتمل ذلك ساعة اخرى .. ثم تركانى وانصرفا معا ..

وصبرت على السجن ساعتين أو ثلاثا ، وأخيرا سمعت وقع خطوات ، لم تكن خطوات هيثكليف ، ثم صوتا يقول :

ـ لقد أحضرت لك شيئا من الطعام .. افتحى الباب ..

فأطعت فى لهفة ، وعندئذ رأيت هيرتون محملا بطعام يكفى لغذائى يوما كاملا . ودفع بالصفحة بين يدى قائلا : «خذى!»

فبدأت أقول :

ـ ابق معي دقيقة واحدة ..

ولكنه صاح فى وجهى : « كلا ! »

ثم تراجع الى الوراء ، وهو يوصد الباب من الخارج ، غير مكترث للتوسلات التى تدفقت من فمى كى أبقيه معى قليلا ..

وظللت حبيسة اليوم بأسره ، والليلة التالية ، ثم ليلة أخرى ، فثالثة .. خمس ليال وأربعة ايام قضيتها فى سجنى ، لا ارى احدا غير هيرتون ، مرة واحدة فى كل صباح .. وكان مثال السجان الأمين ، متجهما صارم الأسارير ، يصيبه الخرس والصمم أمام أية محاولة منى لاثارة الشعور بالعدالة أو الرحمة فى نفسه ..

الفصل الثامن والعشرون

فى صباح اليوم الخامس ، أو بالأحرى بعد الظهر ، سمعت خطوات مختلفة عن خطى هيرتون تقترب من زنزانتى .. خطى أخف وقعا وأقصر مدى .. وفى هذه المرة دخل القادم الحجرة ولم يكتف بالوقوف خارجها .. كانت « زيللا » مدبرة المنزل ، متدثرة بشملتها القرمزية ، ومغطية رأسها بقلنسوة حريرية سوداء ، وقد علقت فى ذراعها سلة من أغصان الصفصاف ..

وما كادت ترانى حتى هتفت تقول :

ـ آه ياالهى ! .. مسز دين ! .. أهذه أنت حقا ؟ .. حسنا ! .. ان الناس يتحدثون عنك فى « جيمرتون » ، وظللت أعتقد انك غرقت فى مستنقع « الجواد الأسود » ، والآنسة معك ، حتى أخبرنى السيد بأنهم عثروا عليك وأنه أسكنك هنا ! .. ولكن .. لابد ان تكونى قد ارتقيت جزيرة وسط المستنقع ، فلم تغرقى ! .. وكم من الزمن لبثت فى هذه الورطة ؟ .. هل

السيد هو الذى أنقذك يامسز دين ؟.. ولكن عجبا !.. أراك لم يصبك الهزال والنحول ! .. ويبدو انك لم تقاسى كثيرا ، أليس كذلك ؟

فأجبتها :

— ان سيدك وغد عريق !.. ولكنه سوف يدفع الثمن غاليا .. انه لم يكن فى حاجة الى اختلاق هذه الرواية ، فلن يلبث الناس حتى يعرفوا كذبها ..

— ماذا تعنين ؟ . انها ليست روايته ، بل هى حديث الناس فى القرية .. فهم جميعا يقولون انك فقدت فى المستنقع .. وعندما عدت من أجازتى ، ذهبت الى ايرنشو ، وقلت له : « لقد وقعت أشياء عجيبة منذ ذهابى يامستر هيرتون ! .. وانه لمصير محزن لتلك الفتاة اللطيفة ، ومسز دين الطيبة !» .. فراح يحملق فى وجهى حتى ظننته لم يسمع شيئا عن الأمر ، وهكذا أخبرته بما تقول الشائعات .. وكان السيد يصغى الى ، فما لبث أن ابتسم وقال : « ان كانتا قد سقطتا فى المستنقع يا زيللا ، فانهما خارجه الآن ! .. ان نللى دين تقيم فى حجرتك هذه اللحظة ، وفى وسعك ان تطلبى اليها الرحيل ، عند ما تصعدين اليها .. هاك المفتاح ! .. كانت رأسها مليئة بالوحل والماء الآسن ، وأرادت أن تجرى عائدة الى منزلها ، وقد اصابها الخبال ، ولكنى أرغمتها على البقاء هنا حتى تستعيد حواسها الضائعة !.. والآن يمكنك ان تطلبى اليها الذهاب الى « الجرانج » على الفور ، اذا كانت قادرة على السير ، وأن تبلغهم رسالة منى ، هى أن السيدة الشابة سوف تلحق بها فى الوقت المناسب لحضور جنازة السيد ! »

فهتفت فى أنفاس لاهثة :

ـ آه ! .. زيللا ! .. زيللا !.. ان مستر ادجار لم يمت أليس كذلك ؟..

ـ كلا .. كلا .. اجلسى واهدئى أيتها السيدة الطيبة ! .. انك مازلت مريضة اذن ؟ .. كلا .. انه لم يمت وفى رأى الدكتور كينيث انه قد يعيش يوما آخر .. لقد قابلته فى الطريق وسألته عنه ..

ولكنى ، بدلا من ان أجلس ، اختطفت ثيابى الخارجية ، وهبطت السلم على عجل ، اذ وجدت الطريق خاليا .. فلما ولجت حجرة الجلوس ، رحت أتطلع حولى باحثة عن شخص أسأله عن كاثرين .. وكان المكان مليئا بأشعة الشمس الدافئة ، والباب مفتوحا على مصراعيه .. ولكنى لم أر أحدا هنــاك ، أو هكذا خيل الى فى بادىء الأمر ، لأننى عند ما استدرت مترددة بين الرحيل من فورى ، أو العودة للبحث عن سيدتى ، استرعى انتباهى سعال خفيف ينبعث من ناحية المدفأة .. كان لينتون مضطجعا فوق الأريكة ، وحده فى الحجرة كلها ، يمتص عصــا من (السـكر نبات) ، ويتبع حركاتى بعينين خاملتين .. فسألته فى صرامة وشدة : « أين مس كاثرين ؟ » .. وقد خيل الى اننى اذا أفزعته ، وهو بمفرده ، فسوف يبوح لى بمعلوماته على الفور .. ولكنه ظل يمتص حلواه فى براءة ، دون أن يجيب ، حتى قلت :

ـ هل رحلت ؟

عندئذ اجابنى قائلا :

ـ كلا .. انها فى الطابق العلوى ، ولن ترحل من هنا ..

اننا لن نسمح لها بذلك !

فصحت به :

ــ لن تسمح لها أيها الأبله الصغير ! .. ارشدنى الى حجرتها فى الحال والا جعلتك تصرخ صراخا حادا !

ــ بل ان أبى هو الذى سيجعلك تصرخين اذا ذهبت الى هناك .. وهو يقول اننى لا يجب أن أكون لينا مع كاثرين ، فهى زوجتى ، ومن العار أن ترغب فى هجرى !.. ويقول ايضا انها تمقتنى ، وتتمنى أن أموت ، حتى ترث أموالى .. ولكنها لن تنالهـا ! .. ولن تعود الى منزلها ! .. لن تعـود أبدا ! .. وفى وسعها أن تبكى وأن تمرض ما شاء لها البكاء والمرض !

وعاد الى شغلته السابقة فى امتصاص حلواه ، وقد أغلق جفونه كأنما ينوى أن يستسلم للنعاس .. وعندئذ عمدت الى الملاينة ، فقلت :

ــ هل نسيت يا سيد لينتون رفق كاثرين بك فى الشتاء الماضى ، عندما كنت تؤكد لها انك تحبها ، وعندما كانت تحضر لك الكتب ، وتشدو لك بالأغانى ، وتأتى ــ أكثر من مرة ــ وسط العواصف والثلوج لتراك ؟ .. لقد كانت تبكى فى مرارة ، عندما يفوتها الحضور يوما واحدا ، لأن ذلك سوف يضايقك .. وقد شعرت ، فى ذلك الوقت ، انها كانت مثال الطيبة والحنو معك ، ومع ذلك فأنت تصدق الآن أكاذيب والدك التى يلقى بها اليك ، رغم علمك بأن يكرهكما معـا ، وتنحاز الى جانبه ضدها .. ياله من عرفان بالجميل ، يا سيد لينتون ! .. أليس كذلك ؟

فتدلى ركن فمه ، واخرج الحلوى من بين شفتيه ، بينما

تابعت القول :

ـ هل تراها حضرت الى « مرتفعات ويذرنج » لأنهـا تمقتك ؟ .. وهـلا فكرت فى الأمر بنفسـك ؟ .. أما عن أموالك ، فانها لا تعلم انك سوف تقتنى شيئا .. ثم تقول انها مريضة ، ومع ذلك تتركها وحدها فى الطابق العلوى من منزل غريب عليها .. أنت الذى طالما شعرت بقسوة الاهمال ! .. كان فى وسعك أن ترثى لآلامك ومتـاعبك ، وكانت هى ترثى لهمـا كذلك .. أما الآن فانك لاترثى لآلامها ولا تريد أن تأخذك الشفقة عليها ! .. اننى أذرف الدموع يا سيد هيثكليف كما ترى ـ أنا العجوز المتهـالكة التى لا تزيد عن مجرد خادم ـ بينما تدخر أنت كل عبرة من دموعك لتذرفها على نفسك ، بعد أن تظاهرت بكل هذا الحب نحوها ، وكان الأولى بك أن تعبدها عبادة ، ثم ترقد هنا هادئا ناعم البال ! .. آه ! .. يا لك من غلام أنانى حجرى الفؤاد !

فأجاب ساخطا :

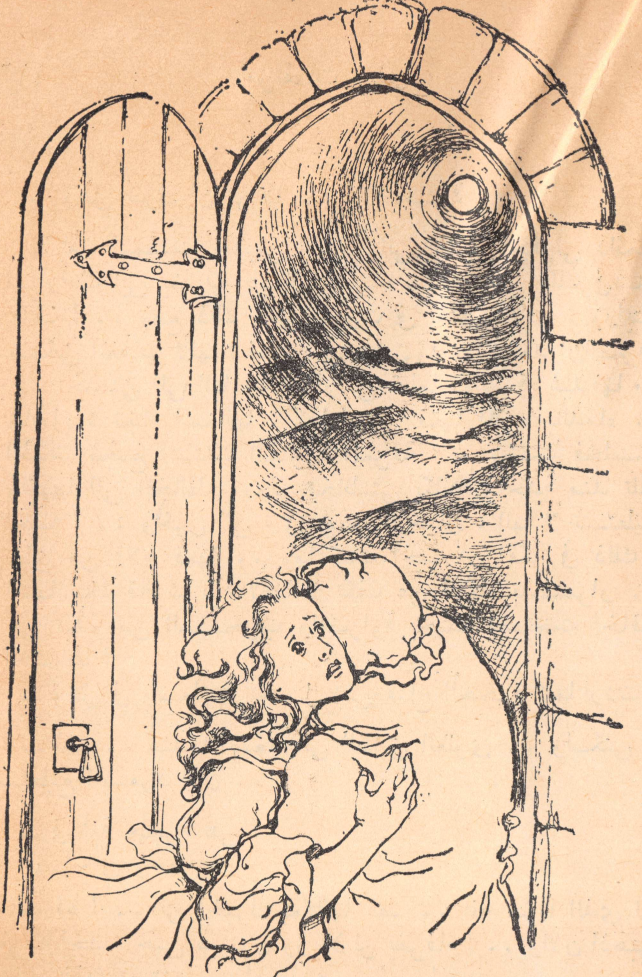
ـ اننى لا أستطيع البقاء معها ، والا ما بقيت وحدى .. ولكنها لا تفتأ تبكى حتى لا أستطيع الاحتمال .. وهى لا تكف ولا تستريح من البكاء ، مهما هددتها باستدعاء والدى .. .. بل لقد دعوته مرة ، فأنذرها بأنه سوف يكتم أنفاسها ، اذا لم تخلد الى السكون .. ولكنها بدأت من جديد ، بمجرد انصرافه من الغرفة ، تئن وتنتحب الليل بطوله ، رغم اننى ضقت بها ذرعا فصحت بها أن تسكت حتى أستطيع النوم !

ورأيت ذلك المخلوق التعس عاجزا عن الاشفاق على ابنة خاله ، والرثاء لعذابها الفكرى ، فسألته :

ــ هل مستر هيثكليف خارج الدار ؟

ــ انه فى الفناء ، يتحدث الى الدكتور كينيث .. وهــو يقول ان خالى يعانى سكرات الموت حقيقة هذه المرة ! .. وذلك يسرنى كثيرا لأننى سوف أصبح سيد « الجرانج » بعده ! .. لقد كانت كاثرين تتشدق دائما بالحديث عنه كأنه « منزلها » .. كلا .. انه ليس ملكهــا .. انه ملكى أنا .. ويقول أبى ان كل شىء تقتنيه قد أصبح لى .. كتبها اللطيفة جميعا صارت كتبى .. لقد عرضت على أن تهبنى كتبها ، وطيورها الجميلة ، ومهرها « مينى » ، اذا أحضرت لها مفتاح الحجرة وتركتها تخرج من الدار .. ولكنى أخبرتها بأنه لم يعد لها ما تهبه أو تمنحه ، لأن كل ما لها أصبح ملكى ! .. وعندئذ انخرطت فى البكاء ، ثم أمسكت بصورة صغيرة تعلقها فى عنقها ، وقالت ان هــذه لن تكون لى قــط .. ورأيت صورتين ، فى اطار ذهبى أنيق ، احداهما لأمها ، والثانيــة لخالى ، عندما كانا فى مقتبل العمر .. لقد حدث ذلك بالأمس فقط ، فقلت لها انهما أيضا قد أصبحتا ملكى ، وحاولت أن انتزعهما منها .. ولــكن الخبيثــة لم تمكنى من اخذهما ، ودفعتنى دفعة آذتنى .. فصحت مستنجدا ، وذلك يفزعها كثيرا ، فلما سمعت وقع اقدام أبى ، حطمت مفصلات الرصيعة وقسمتها اثنين ، ثم أعطتنى صورة أمها وحاولت اخفاء الصورة الأخرى .. ولكن أبى سأل عن جلية الخبر ، فشرحته له .. وعندئذ أخذ منى الصورة التى كانت معى ، وأمرها بأن تسلم الأخرى لى .. ولكنها أبت ، فضربها ــ هو ــ حتى ألقى بها على الأرض ، وانتزع الصورة من السلســلة وسحقها تحت قدمه ..

فقلت له ، وأنا أكبت مشاعرى ، حتى استــدرجه الى



« .. ولم اجد المحامي امامي ، بل كانت سيدتي الصغيرة هي التي اندفعت تحيط عنقي بذراعيها وهي تنتحب ... »

(صفحة ٤٣٩)

الكلام :

ــ وهل سرك أن تراها تضرب أمامك ؟

ــ لقد أغمضت جفونى ! .. وانى اغمض جفونى دائما كلما رأيت ابى يضرب كلبا او حصانا ، لأنه يفعل ذلك فى شدة وعنف ! .. ومع ذلك فانى سررت فى بادىء الأمر ، ورأيتها تستحق العقاب لأنها دفعتنى بيدها.. ولكنها ، بعد انانصرف أبى ، أخذتنى الى النافذة ، وأرتنى قطعا طويلا فى شدقها من الداخل ، تجاه اسنانها ، كما أرتنى فمها الملىء بالدماء .. وأخذت تجمع أشتات الصورة الممزقة ، ثم مضت فجلست ووجهها الى الحائط ، ولم تخاطبنى بكلمة واحدة منذ تلك اللحظة ! .. ويخيل الى ، فى بعض الأحيان ، انها لا تستطيع النطق من آلام فمها .. وما كنت أحب أن أفكر فى ذلك ، ولكنها مخلوقة شريرة لأنها لا تكف عن البكاء باستمرار .. وهى تبدو من الشحوب والضراوة بحيث أصبحت أخافها وأخشاها !

ــ وهل فى وسعك أن تحصل على مفتاح الحجرة كلما أردت ؟

ــ نعم .. عندما أصعد الى الطابق العلوى .. ولكنى لا أستطيع الصعود الآن ..

ــ فى أية حجرة هى ؟

فصاح فى وجهى :

ــ آه ! .. لن أخبرك بمكانها قط .. انه سرنا الذى لن يعرفه أحد ، حتى هيرتون وزيللا لن يعرفاه ! .. والآن اذهبى عنى ، فقد أتعبتنى .. اغربى عن وجهى !

ثم أدار وجهه نحو مسند الأريكة ، واغمض عينيه من جديد ..

وفضلت أن أرحل بغير امهال ، دون أن انشد لقاء مستر هيثكليف ، فأحضر نجدة من « الجرانج » لانقاذ سيدتى الشابة .. فلما وصلت الى هناك كانت دهشة زملائى الخدم لرؤيتى بالغة ، وكذلك فرحتهم بعودتى .. وعندما سمعوا أن سيدتهم الصغيرة بخير ، كاد اثنان أو ثلاثة منهم أن ينطلقوا مسرعين ليصيحوا بالنبأ السعيد أمام حجرة مستر ادجار ، ولكنى سبقتهم لحمل الخبر اليه بنفسى .. وشد ما ارتعت لما وجدته من تبدل حالته ، وما أصابه من تغيير ، حتى فى هذه الأيام القلائل ! .. كان يرقد فى انتظار الموت ، أشبه بصورة من الحزن والاستسلام .. وكم كان يبدو فى ربيع الشباب عندئذ .. فعلى الرغم من انه كان فى التاسعة والثلاثين من عمره، الا أن المرء كان يخاله أصغر عن ذلك بعشر سنين على الأقل .. وكان يفكر فى كاثرين ، لأنه غمغم هاتفا باسمها ، فلمست يده فى رفق ، وهمست قائلة :

ــ كاثرين قادمة اليك أيها السيد العزيز .. انها على قيد الحياة ، وفى حالة طيبة ، وأرجو أن تكون هنا الليلة ..

وسرت الرعدة فى بدنى عندما شهدت أول آثار هذا النبأ عليه .. فقد قام فى فراشه نصف قيام ، وراح يتلفت حواليه فى لهفة ولوعة ، ثم هوى فى فراشه مغشيا عليه .. وما أن أفاق من غشيته حتى رويت له زيارتنا الاجبارية «للمرتفعات» ، وسجننا هناك .. قلت له أن هيثكليف أرغمنى على الدخول عنوة ، وهو ما لم يكن صحيحا كل الصحة .. ولم أتكلم الا القليل ضد لينتون ، كذلك لم أصف له مسلك أبيه الوحشى .. فقد كانت نيتى ألا أضيف المزيد من المرارة ــ لو استطعت أن احول دون ذلك ــ الى كأسه الطافحة ..

واستشف سيدى أن هدف عدوه - أو احد اهدافه - كان يرمى الى ضمان أموالها الخاصة لابنه ، فضلا عن الضيعة ، أو بالأحرى ضمانها لنفسه ! .. أما لماذا تعجل الأمر ، ولم يصبر حتى وفاته ، فقد كان لغزا استعصى على سيدى حله .. لأنه كان يجهل أنه وابن أخته يوشكان أن يفارقا الدنيا معا ، كأنهما على ميعاد ! .. ومهما يكن من أمر فقد رأى من الأفضل أن يغير وصيته ، وبدلا من أن يترك ثروة كاثرين الخاصة تحت تصرفها المطلق ، فقد عزم على أن يضعها بين أيدى وكلاء يشرفون على استغلالها ، ويعطون كاثرين ريعها ما دامت على قيد الحياة ، ثم لأبنائها من بعدها اذا رزقت بأولاد .. وبهذه الطريقة لا تؤول الى مستر هيثكليف اذا مات ابنه لينتون ..

وما أن تلقيت أوامره ، حتى أرسلت رجلا لاحضار المحامى ، كما اوفدت اربعة غيره ، مزودين بالأسلحة الكافية ، ليطلبوا سيدتى الصغيرة من سجانها .. وطالت غيبة الفريقين الى وقت متأخر ، وكان الخادم الأول هو السابق فى العودة ، فقال ان مستر جرين المحامى لم يكن بمنزله عندما وصل اليه ، فاضطر الى البقاء ساعتين فى انتظار عودته .. وان مستر جرين أخبره بأن لديه مهمة صغيرة فى القرية يتعين عليه أداؤها ولكنه سوف يكون فى « ثرشكروس جرانج » قبل الصباح .. كذلك عاد الرجال الأربعة وحدهم ، قائلين ان كاثرين مريضة ، بل شديدة المرض الى حد لا يسمح لها بالخروج ، وان مستر هيثكليف لم يسمح لهم برؤيتها .. وقد أهلت اللوم والتأنيب على رؤوس أولئك الحمقى لتصديقهم هذه الرواية الكاذبة التى لم اكن استطيع نقلها الى السيد ..

وصممت على أن آخذ فرقة كاملة الى « المرتفعات » عند

الفجر ، فأثير عاصفة صاخبة ، ما لم تسلم لنا الأسيرة فى هدوء .. فقد نذرت لله أن يراها والدها قبل موته ، ثم نذرت مرة ثانية — لو أدى الأمر — أن اقتل ذلك الشـــيطان على عتبة داره وهو يحاول منعها !

ومن حسن الحظ أننى كفيت مؤونة الرحلة والمتاعب ! .. فقد نزلت الى الطابق الأرضى فى الساعة الثالثة لأحضر ابريقا من الماء ، وكنت أحمله فى يدى واجتاز الردهة عندما سمعت على الباب الأمامى طرقة حادة روعتنى وجعلتنى أقفز مجفلة .. ولكنى قلت اطمئن نفسى : « آه ! .. انه جرين .. لا أحد يأتى الآن سوى جرين » .. ثم مضيت فى طريقى عازمة على أن أرسل شخصا آخر ليفتح الباب .. ولكن الطرق تكرر فى الحاح ، دون ان يكون حادا او عاليا .. فوضعت الابريق على حافة سياج الدرج، وأسرعت أفتح الباب بنفسى..وكان قمر الخريف مشرقا يسطع بضيائه فى الخارج .. ولم أجد المحامى أمامى .. بل كانت سيدتى الصغيرة المحبوبة هى التى اندفعت تحيط عنقى بذراعيها وهى تنتحب هاتفة :

— ايلين .. ايلين .. ألا يزال أبى على قيد الحياة ؟

فصحت :

— نعم .. نعم يا ملاكى ، انه حى يرزق .. شكرا لله اذ أعادك الينا سليمة ثانية ..

وكانت تريد أن تهرع الى الطابق العلوى، حيث حجرةمستر لينتون ، وهى على حالها من الأنفاس المبهورة..ولكنىأرغمتها على الجلوس وسقيتها جـرعة من الماء ، وغسلت وجههــا المتقع ، وتغاليت فى تجفيفه بمرولتى حتى بعثت فيه طيفا من التورد .. وقلت لها بعد ذلك اننى يجب أن أذهب اليه

أولا فأخبره بوصولها .. وتوسلت اليها ان تقول له انها سوف تكون سعيدة مع هيثكليف الصغير .. فحملقت فى وجهى مشدوهة ، ولكنها سرعان ما أدركت لماذا نصحت لها بالكذب ، وأكدت لى انها لن تشكو من شىء ..

ولم يكن فى طاقتى ان أحتمل مشهد اللقاء بينهما ، فوقفت خارج باب الحجرة زهاء ربع ساعة ، ثم غالبت ضعفى وتسللت قريبا من الفراش .. ومع ذلك رأيت كل شىء هادئا يحوطه الجلال .. كان يأس كاثرين صامتا كفرحة أبيها .. كانت تسنده ، وفى أساريرها مسحة من الهدوء الظاهرى .. وكان يثبت أنظاره فوق محياها ، وقد اتسعت عيناه سرورا ونشوة ..

وقد لفظ أنفاسه الأخيرة ، يا مستر لوكوود ، فى سلام ودعة .. قبل وجنتها ، ثم غمغم يقول :

ـ اننى ذاهب اليها .. وسوف تأتين الينا أنت الأخرى ، يا طفلتى المحبوبة !

وعندئذ سكن جسده ، فلم يتحرك أو ينطق بعدها ، ولكن بقيت فى عينيه تلك النظرة الذاهلة الوضاءة ، حتى توقف نبضه فى خفاء ، وفاضت روحه فى سكينة وسلام .. فلم يكن أحد ليستطيع أن يتبين اللحظة التى مات فيها على وجه التحديد ، اذ انقضى كل شىء دون أن يعانى عذاب النزع الأخير !

وسواء أكانت كاثرين قد استنفدت كل ما لديها من دموع ، أم كان حزنها من العمق بحيث حال دون انسكابها ، فقد جلست متحجرة العينين حتى مطلع الشمس .. وظلت جالسة حتى الظهر ، وكان بودها لو تبقى مستغرقة فى أحزانها بجوار

فراش الموت ، لولا أن ألححت عليها فى أن تقوم لتنال قسطا من الراحة .. وحسنا فعلت ، اذ أفلحت فى اخراجها من الغرفة ، فما كاد يحين موعد الغداء حتى ظهر المحامى ، بعد أن ذهب الى « مرتفعات ويذرنج » ليتلقى التعليمات فيما يكون عليه مسلكه .. لقد باع الشقى نفسه الى مستر هيثكليف ، وكان ذلك سبب توانيه عن تلبية دعوة سيدى له .. ومن حسن الحظ أن شيئا من الأمور الدنيوية لم يطرأ على فكر السيد ، فيزعجه ، بعد سعادته بمقدم ابنته ..

وأخذ مستر جرين على عاتقه أن يأمر وينهى فى كل شىء وكل انسان فى المنزل ! .. وانذر الخدم جميعا ، ما عداى ، بالفصل من الخدمة .. وكان بوده أن يذهب بسلطته المفوضة الى حد الالحاح فى عدم دفن ادجار لينتون بجوار زوجته ، بل فى المعبد بين أسرته .. ولكن وصية سيدى كانت قائمة لتحول دون ذلك ، فضلا عن احتجاجى الصاخب على أى اخلال بما تضمنته .. أما كاثرين ، مسز لينتون هيثكليف الآن ، فقد سمح لها بالبقاء فى « الجرانج » حتى يفارقه جثمان أبيها ، الذى أعدت الترتيبات لتشييع جنازته على عجل ..

وعلمت منها ان شدة حزنها ولوعتها قد حفزت لينتون الى المجازفة باخلاء سبيلها ! .. كانت قد سمعت جدال الرجال الذين بعثت بهم ، عند باب المنزل ، وأدركت ما يرمى اليه هيثكليف بجوابه لهم ، فدفعها ذلك الى حالة من اليأس الجنونى .. وكان لينتون قد نقل الى البهو الصغير فى الطابق العلوى على أثر انصرافى ، فتملكه الفزع اذ رآها على هذه الحال ، حتى حدا به الى البحث عن المفتاح واحضاره قبل أن يصعد والده .. وكان من الدهاء بحيث راح يوصد القفل

ويفتحه مرة بعد مرة ، الى أن تركه مفتوحا فى النهاية .. فلما حان موعد نومه ، توسل الى أبيه أن يسمح له بالنوم مع هيرتون ، فأجيب الى رغبته لأول مرة .. وتسللت كاثرين قبل انبلاج الصبح ، ولكنها لم تجرؤ على الخروج من الباب الرئيسى خشية أن تثير الكلاب الجاثمة فى الردهة ضجة تفضحها ، وانما راحت ترتاد الحجرات الخالية واحدة بعد الأخرى تفحص نوافذها .. فلما بلغت حجرة أمها أخيرا ، استطاعت لحسن الحظ أن تخرج من نافذتها بسهولة ، وأن تهبط الى الأرض مستعينة بشجرة الشربين الملاصقة للنافذة .. وقد لقى شريكها جزاءه لمساعدتها على الفرار ، رغم كل ما احتال به من حجج واهية !

الفصل التاسع والعشرون

جلست مع السيدة الصغيرة فى المكتبة ، مساء يوم تشييع الجنازة ، مستغرقتين فى التفكير ، فى حزن وأسى — يصحبهما اليأس عند كاثرين — فى الخسارة الفادحة التى ألمت بنا ، متخبطتين فى تكهناتنا عن المستقبل القاتم العبوس ..

وقد اتفق رأينا على أن خير مصير يمكن أن ينتظر كاثرين ، هو احتمال السماح لها بمتابعة اقامتها فى « الجرانج » ، وعلى الأقل أثناء حياة لينتون ، على أن يسمح له بالانضمام اليها هناك ، وأن ابقى معهما فى وظيفتى كمدبرة للمنزل ..

ولكن هذا الوضع كان يبدو أملا بعيد التصديق ، لما فيه من راحة لنا وملاءمة لرغباتنا .. ومع ذلك كنت لا أزال أرجو وأؤمل .. وبدأت أبدى ابتهاجي للاحتفاظ بمنزلي ، ووظيفتي ،

وفوق كل شيء بسيدتى الصغيرة المحبوبة ، عندما قدم أحد الخدم - من الذين انذروا بالفصل ، وان لم يكن قد غادر المنزل بعد - مندفعا نحونا ، معلنا ان « الشيطان هيثكليف » يعبر الفناء مقبلا نحو المنزل ، ويسألنا ان كان ينبغى أن يغلق الباب فى وجهه ؟

ولو كنا من الجنون بحيث نأمره باتخاذ هذا الاجراء ، لما اتسع لنا الوقت لذلك .. فان هيثكليف لم يعن بالشكليات كالطرق على الباب، أو ارسال من يستأذن له علينا .. فقد كان سيد الدار ، ومن ثم أضفى على نفسه ميزات سيد الدار من شق طريقه فيها قدما ، ودون أن يلقى بأية كلمة .. وقد هداه صوت الخادم الى المكتبة ، فدخل علينا وطرد الرجل ثم أغلق الباب !

كانت عين الحجرة التى استقبل فيها ، ضيفا ، منذ ثمانية عشر عاما .. وكان القمر نفسه يسترق الخطى من خلال النافذة .. بل ان المنظر الخارجى ، وقد أضفى الخريف عليه طابعه ، كان أشبه بمثيله فى تلك الليلة البعيدة .. ولم نكن قد أوقدنا الشموع بعد ، غير أن الحجرة كلها كانت واضحة المعالم .. حتى الصور المعلقة على الجدران .. صورة رأس مسز لينتون الجميل ، ورأس زوجها الذى يشع رقة وبهاء .. وتقدم هيثكليف نحو المدفأة .. حتى هو لم يغيره الزمن الا قليلا .. كان الرجل نفسه ، وان ازداد وجهه شحوبا وصرامة ، وازداد جسمه بدانة نوعا ما .. ذلك كل ما تغير فيه ..

فلما رأته كاثرين ، نهضت واقفة واندفعت تهم بالخروج ، ولكنه أمسك بذراعها وقال :

ــ قفى ! .. لا فرار لك بعد الآن ! .. والى أين تريدين الذهاب ؟ .. لقد أتيت لآخذك الى منزلك ، وأرجو أن تكونى بعد ذلك ابنة مطيعة تقدرين واجباتك ، ولا تشجعين ابنى على مزيد من العصيان ! .. لقد حرت كيف أعاقبه عندما كشفت دوره فى خطة فرارك ، فهو أرق من نسيج العنكبوت ، وقرصة واحدة قد تقضى عليه ! .. ولكنك سترين من شكله أنه قد تلقى ما يستحقه .. فقد حملته الى الطابق الأرضى ذات مساء ، وكان ذلك أول أمس ، واجلسته فى مقعده ، ولم أمسه بيدى بعد ذلك قط ! .. ولكنى أخرجت هيرتون من الحجرة ، وبقينا فيها وحدنا .. وبعد ساعتين ناديت جوزيف ليحمله الى حجرته ثانية .. ومنذ ذلك الحين أصبح حضورى أشد ارهابا له من الأشباح المخوفة !.. وأحسبه يرانى كثيراً ، وان لم أكن قريبا منه ، فقد أخبرنى هيرتون انه يستيقظ أثناء الليل ، ويظل يصرخ ساعة بأسرها ، ويناديك لتحميه منى ! .. وسواء أكنت تحبين زوجك الغالى ، أم لا تحبينه ، فلا بد لك من الحضور الى البيت ، لأنه الآن من شأنك ، وانى أتنازل لك عن كل ما يهمنى فيه !

فتدخلت لأقول له فى ضراعة :

ــ لماذا لا تدع كاثرين تستمر فى الاقامة هنا وترسل السيد لينتون ليعيش معها ؟ .. انك لن تشعر بفقدهما ما دمت تكره كليهما .. انهما لن يكونا الا تنغيصا يوميا لقلبك الذى لا يشبه قلوب البشر فى شىء ..

فأجاب :

ــ اننى أبحث عن مستأجر « للجرانج » .. ثم أنى أريد أولادى حولى لأطمئن عليهم .. وفضلا عن ذلك فان هذه الفتاة

مدينة لى بخدمتها لقاء طعامها ! .. ولن أدعهـا تعيش فى رفاهية وكسل بعد موت لينتون ! .. هيا اسرعى واستعدى للذهاب معى الآن ، ولا تلجئينى الى ارغامك على ذلك !

فقالت كاثرين :

ـ سوف أذهب ، فان لينتون هو كل ما ينبغى أن أحبه فى هذا العالم .. ومع انك بذلت كل ما فى وسعك لتنفره منى ، وتنفرنى منه ، فانك لا تستطيع الآن أن تجعل أحدا منا يمقت الآخر .. وانا أتحداك أن تسىء اليه عندما أكون معه ، واتحداك ان تستطيع اخافتى !

فأجاب هيثكليف :

ـ يا لك من بطلة متباهية ! .. ولكنى لا أحبك الى الحد الذى يجعلنى أسىء اليه بسببك .. انك أنت التى ستجنين ثمرة العذاب كله .. ولست أنا الذى سأجعله بغيضا اليك ، وانما هو شعوره الطيب وروحه الحلوة ! .. انه يشعر بمرارة الصفراء لفرارك ، وما تبع ذلك من عواقب .. ولا تنتظرى منه الثناء على وفائك النبيل ، فقد سمعته يرسم صورة بهيجة لما يود أن يفعله بك ، لو أوتى مثل ما لى من قوة وبطش .. وها أنت ترين أن النية موجودة لديه ، وان ضعفه بالذات هو الذى سوف يجعله يشحذ ذهنه لاستنباط بديل عن القوة والعنف ..

فقالت كاثرين :

ـ اننى أعرف سوء طويته ، فهو ابنك ! .. ولكن يسرنى اننى أطيب منه قلبا ، حتى أصفح عن سوء نيته ! .. واعرف أيضا انه يحبنى ، ولذلك فاننى احبه .. اما انت يا مستر هيثكليف فلا تجد انسانا يحبك .. ومهما سببت لنا من

شقاء ، فاننا نجد العزاء والسلوى ، ونشعر بحلاوة الانتقام كلما فكرنا فى أن قسوتك تنبعث من شقائك الذى يفوق شقاءنا .. انك شقى تعس ! .. ألست كذلك حقا ؟ .. انك وحيد كالشيطان، حقود مثله !.. لن تجد انسانا يحبك ، أو يبكى يوم مماتك .. وما كنت لأتمنى أن أكون فى مكانك ..

كانت كاثرين تتكلم فى شماتة مخيفة .. كانت تبدو كأنما قررت أن تتقمص روح الأسرة التى ستعيش بينها ، وتلتمس السرور من أحزان أعدائها ..

فقال حموها :

ـ ستندمين حالا على انك على قيد الوجود ، اذا لبثت واقفة هنا دقيقة أخرى .. اذهبى أيتها الشريرة ، واحضرى متاعك !

فانسحبت فى ازدراء وتشامخ .. وبدأت أرجوه اثناء غيبتها ان يمنحنى مكان زيللا فى « المرتفعات » ، على ان اتنازل لها عن مركزى هنا .. ولكنه لم يقبل فى ذلك جدالا أو نقاشا ، بل أمرنى بالسكوت .. وعندئذ ، وللمرة الأولى ، أتاح لنفسه أن يلقى لمحة على أرجاء الحجرة ، ونظرة الى الصور .. وبعد أن تأمل صورة مسز لينتون قليلا ، انبعث يقول :

ـ سوف يكون لى هذا المنزل ، لا لأننى فى حاجة اليه ، وانما ..

ثم تحول بغتة الى المدفأة ، وعلى وجهه ما أسميه ابتسامة لأننى لا أجد كلمة أفضل اصفه بها ، واستطرد يقول :

ـ سوف أحدثك عما فعلته بالأمس .. لقد جعلت اللحاد الذى كان يحفر قبر لينتون يزيل التراب عن غطاء تابوتها، ثم فتحته ! .. وقد خيل الى لحظة اننى أود البقاء هناك أبدا ،

عندما رأيت وجهها ـ وهو لايزال الى الآن نفس الوجه ! ـ حتى لقى الرجل عناء فى زحزحتى ، بعد ان قال ان هبوب الهواء عليه سوف يفسده .. وعندئذ نزعت المسامير من أحد جانبى التابوت، ثم أعدت الغطاء فوقه .. ولم يكن ذلك الجانب ناحية لينتـــون ، لعنة الله عليـــه ! .. ليتهم لحموا تابوته بالرصاص ! .. ثم رشـوت اللحـاد أن يزيح تابوتها جانبا ، عند ما أوضع هناك بدورى ، وينزلنى بينهما ! .. وسـوف اعمل على تنفيذ ذلك ، حتى اذا ما أتى شبح لينتون الينا لم يعرف أيهما تابوتى وايهما تابوتها !

فهتفت قائلة :

ـ انك ممعن فى الشر يا مستر هيثكليف .. ألم تخجل من ازعاج الموتى ؟

ـ اننى لم أزعج احدا يانللى ! .. وانما جلبت على نفسى شيئا من الراحة ! .. وسـوف ازداد راحة وهدوءا الآن ، وستجدين فى هذا ضمانا أقوى لبقائى تحت اطباق الثرى عندما اذهب الى هنـاك .. أتزعمين اننى أزعجتهـا ؟ .. كلا .. انما هى التى كانت تزعجنى وتقض مضجعى ، يوما بعد يوم ، وليلة بعد ليلة ، خلال ثمانية عشر عاما متواصلة بلا انقطاع ، وبغير رحمة أو شفقة ، حتى الأمس ! .. بالأمس فقط هدأت واسترحت .. واشتهيت أن انام نومتى الأخيرة بجوار هذه النائمة ، وقد كف قلبى عن الخفقان ، وتجمد خدى ملاصقا لخدها !

ـ ولو كان بدنها قد تحلل الى تراب ، أو ماهـو اسوأ من التراب ، فما الذى كنت تشتهيه عندئذ ؟

ـ ان اتحلل معها ، فاكون بذلك اسعد حالا .. هل تظنيننى

أخشى أى تبدل من هذا النوع ؟ .. لقد توقعت مثل هـذا التحول عند ما رفعت غطاء التابوت .. ولكنى ازددت سرورا بأن التحلل لن يبدأ حتى أشاطرها مصيرها !.. فضلا عن اننى لو لم أتلق امس ذلك الاحساس المحدد بأساريرها الجـامدة ، لما فارقنى أبدا ذلك الشعور الغريب .. لقـد بدأ على نحـو عجيب .. فأنت تعلمين اننى كدت أجن بعد موتها ، وكنت أبتهل اليها بلا انقطاع ، من الفجر الى الفجر ، بأن تعيـد لى روحها ! .. كنت قوى الايمان بالأشباح ، شديد الاعتقاد بأنها تستطيع أن توجد بيننا ، بل وتفعل ذلك فعلا .. وفى اليوم الذى دفنت فيه كاثرين، انهمر الثلج على غير العادة.. وذهبت فى المساء الى فناء الكنيسة ، وكانت ليلة باردة كئيبة، كليالى الشتاء .. كان المكان قفرا موحشا ، فلم أخش مجىء زوجها الأبله لأنه ماكان ليترك جحره ليجول خارجه فى هذه الساعة المتأخرة !.. ولم أخش قدوم غيره، فما من أحد لديه مايدفعه الى الحضور الى هناك .. فلما ألفيت نفسى وحدى ، وكنت أعلم ان ستة أقدام من التراب الرخو هى الحاجز الوحيـد بينى وبينها، قلت لنفسى : « سوف آخذها بين ذراعى ثانية ! ..ولو وجدت جسدها باردا فسأقول ان هذه الريح الشمالية هى التى تبعث القشـعريرة فى أوصـالى ! .. واذا وجدتها ساكنة بلا حراك ، فانه النوم العميق ، ولا شىء غيره ! .. »

« ثم أحضرت معولا من مخزن الكنيسـة ، وأخذت احفر التراب بكل قواى .. وارتطم المعول بغطاء الصندوق، فألقيت بالمعول بعيدا، وأكملت الحفر بأصابعى !.. وبدأ الخشب يطقطق حول المسامير بينما كنت أحاول نزعها ، وأوشكت أن ابلغ غايتى ، عند ما خيل الى بغتة اننى اسمع تنهدا كالأنين ينبعث من شخص ما ينحنى فوقى ، عند حافة القبر ! .. فقلت

لنفسى : « لو استطعت فقط أن أنزع هذا الغطاء ، فليت ذلك الشخص يهيل التراب فوقى فيدفننا معا ! » .. وأقبلت على مهمتى فى يأس المستميت ، فاذا بأنين آخر ينبعث ملاصقا لأذنى .. وخيل الى أننى أحس بالأنفاس الدافئة تهب على وجهى ، وتزيح لفحات الهواء القارس .. كنت أعلم انه مامن مخلوق من لحم ودم يقف بجانبى ! .. ولكن أرأيت اذ تشعرين عن يقين باقترابك من جسم مادى فى الظلام ، دون أن يمكنك تمييزه ؟ .. هكذا شعرت عن يقين بوجود كاثى هناك ، لا فى القبر تحتى ، وانما فوق الأرض معى !.. وعندئذ تدفق من قلبى شعور فجائى براحة عميقة غمرت أوصالى جميعا ، وتخليت من فورى عن عملى الشنيع ، وشعرت بالعزاء يملؤنى ، عزاء صامت مريح .. كنت أشعر بوجودها معى ، وكان هذا الشعور يلازمنى بينما كنت أردم القبر من جديد ، ويقود خطواتى فى عودتى الى المنزل .. لك أن تضحكى، اذا شئت ، ولكنى كنت واثقا من اننى سوف أراها هناك ..

« كنت واثقا من انها معى ، فلم أملك الا ان اتحدث اليها .. فلما بلغت « المرتفعات » اندفعت الى الباب ملهوفا ، فاذا به موصد من الخارج .. وأذكر ان ذلك الوغد هيندلى ايرنشو وزوجتى الحمقاء هما اللذان قصدا منعى من الدخول .. وأذكر كذلك اننى تمهلت ريثما أشبعت هيندلى ضربا وركلا حتى تقطعت انفاسه ، ثم اسرعت الى الطابق العلوى ، الى حجرتى وحجرتها ، فأخذت أتطلع حولى فى لهفة وحنق .. كنت أشعر بها الى جانبى .. حتى لقد كدت أراها .. ومع ذلك لم استطع ان اراها ! .. ولا بد أن يكون العرق قد انبثق من مسامى دما قانيا ، من لوعة حنينى اليها ، ومن حرارة ضراعتى وتوسلاتى بأن تجود على بنظرة أو لمحة اليها .. ولكنى لم أنل واحدة !.. اظهرت نفسها ــ كما كانت كثيرا

وهي على قيد الحياة ـ شيطانا رجيما معى .. ومنذ ذلك الحين أصبحت لعبة هذا العذاب الذى يفوق احتمال البشر ، يشتد حينا ويلين حينـا آخر .. كنت أعيش فى جحيم من توتر اعصـابى على هـذا النحو ، ولولا أنها متينـة كالأوتار لتخاذلت منذ زمن بعيد ، ولأضحت فى مثل رخاوة أعصـاب لينتـون ! .. وعنـد ما كنت أجلس فى حجرة الجلوس مع هيرتون ، كان يخيـل الى اننى لو خرجت لالتقيت بهـا .. وعند ما كنت أسير وسط البرارى ، كنت احسبنى سألقاها راجعة الى المنزل ! .. كنت كلما غادرت الدار ، تعجلت عودتى اليها، ليقينى انها لابد أن تكون فى مكان ما فى «المرتفعات» ! .. وعندما نمت فى حجرتها، وجدتنى أغلب على أمرى وأخرج منها الى غير رجعة .. لم يقر لى قرار او يهنأ لى مضجع هناك .. فمـا ان أغمض عينى ، حتى كنت أحس بهـا أمـا خارج النافذة ، أو تزيح حواجز خزانة الفراش، أو داخلة الى الحجرة .. بل كنت احس بها تريح رأسها الحبيب على الوسادة بجانب رأسى ، مثلما كانت تفعل وهى طفلة .. فـكنت افتح عينى لأراها .. وهكذا رحت أفتحهما واغمضهما مائة مرة فى ليلة واحدة ، فكنت لا ألقى الا الحسرة وخيبة الأمل .. كانت لى عذابا مقيما !.. وكثيرا ما كان أنينى ينبعث عاليا حتى لأشك فى ان ذلك الوغد العجوز جوزيف اعتقد ان ضميرى قد انقلب فى صدرى عدوا ضاريا ! .. أما الآن ، بعد أن رأيتها ، فقـد سكن روعى وارتحت قليـلا .. كانت وسـيلة غريبة لقتلى والقضاء علي ـ لا بوصة بعد بوصة ، بل بمثل قلامة الظفر أو حد الشعرة ـ أن تظل تخادعنى وتلوح لى بطيف أمل كالسراب، خلال ثمانية عشر عاما ! »

وسكت مستر هيثكليف ، واخذ يجفف جبينه .. كان شعره ملتصقا به ، وقد بلله العرق .. وكانت عيناه مركزتين

على جمرات النار المتقدة فى المدفأة .. أما حاجباه فلم يكونا معقودين كعادته ، بل كانا مرتفعين نحو صدغيه ، مما خفف من جهامة محياه — وان كانا يضفيان عليه مسحة غريبة من الانشغال والقلق ، ومظهرا أليما من التوتر العقلى والاستغراق فى موضوع واحد .. كان فى الواقع لايكاد يخاطبنى بحديثه ، فلزمت الصمت ولم أرد عليه .. وكنت لا أحب ان اسمعه يتكلم ..

وبعد لحظة وجيزة ، عاد الى تأمله للصورة ، ثم أنزلها وأسندها الى ظهر الأريكة ، ليسهل عليه تأملها فى امعان .. وبينما كان مستغرقا فى هذه المهمة ، دخلت كاثرين وأعلنت انها على استعداد للذهاب لاتنتظر الا اسراج مهرها ..

فقال هيثكليف لى وهو يشير الى الصورة :

— أرسلى هذه لى غدا ..

ثم أردف قائلا لكاثرين :

— يمكنك أن تستغنى عن المهر ، فانها امسية جميلة .. ثم انك لن تحتاجى الى جياد فى « مرتفعات ويذرنج » ، لأن أى رحلة تخرجين فيها ، لن تستخدمى فيها غير قدميك .. هيا بنا !

فغمغمت سيدتى العزيزة الصغيرة :

— وداعا يا ايلين !

ثم مالت فوقى تقبلنى ، فأحسست بشفتيها باردتين كالثلج .. وأردفت قائلة :

— لاتنسى أن تأتى لزيارتى يا ايلين !

فصاح والدها الجديد :

- اياك أن تفعلى شيئا كهذا يامسز دين ! .. وعندما أريد ان اتحدث اليك فسوف أحضر الى هنا ! .. فلست أحب أن تتجسسى فى منزلى !

وأشار اليها أن تتقدمه ، فأطاعته بعد ان تلفتت الى الخلف لتلقى نظرة الوداع على الحجرة ، نظرة قطعت نياط قلبى .. ورحت أرقبهما من النافذة وهمـا يعبران الحديقة ، فرأيت هيثكليف يتأبط ذراع كاثرين رغم معارضتها لذلك فى البداية ، ثم يسوقها فى خطى سريعة واسعة نحو الممر المؤدى الى الطريق ، والذى مالبثت أشجاره ان أخفتهما عن ناظرى .

الفصل الثلاثون

قمت بزيارة «المرتفعات» ، ولكنى لم أر سيدتى منذ رحيلها عن منزلها .. فقد أمسك جوزيف الباب عند ما ذهبت الى هناك لأسأل عنها ولم يسمح لى باجتيـاز العتبة .. قال ان مسز لينتون معتكفة فى حجرتها ، وان السيد ليس فى المنزل .. ولولا ان زيللا اخبرتنى عن الحال التى يعيشون عليها ، لظللت أجهل من منهم قد مات ومن لايزال على قيد الحياة .. وتعتقـد زيللا ان كاثرين متعجرفة متعـالية ، وحدست من حديثها انها لاتحبها .. فقد طلبت اليها سيدتى الصغيرة أن تساعدها فى شئونها الخاصة ، عند أول عهدها بالدار ، ولكن مستر هيثكليف أمر الخادم بأن تعنى بعملها فحسب ، وان تدع زوجة ابنه تنهض بشئونها بنفسها .. واذعنت زيللا لأمـره راضية فرحة ، اذ هى امرأة ضيقة الأفق شديدة الأثرة ..

ولكن كاثرين أظهرت غضبا كغضب الأطفال لهذا الاهمـال ، وقابلته باحتقار زيللا وازدرائها ، وسـلكتها ضمن أعدائها ، كأنما أساءت اليها اساءة لاتغتفر .. وقـد كان لى مع زيللا حديث طويل منذ نحو ستة أسابيع ، قبل مقدمك ، عند ما اجتمعنا ذات يوم فوق البرارى ، وهاك ما أخبرتنى به ..

« كان أول ما فعلته مسز لينتون عندوصولها الى المرتفعات أن انطلقت مهرعة الى الطابق العلوى ، دون أن تعنى حتى بالقاء السلام على او على جوزيف ، ثم حبست نفسها فى حجـرة لينتون وظلت بها حتى الصباح .. وعندئذ ، بينما كان السيد وايرنشو يتناولان طعام الافطار ، دخلت عليهما حجرة الجلوس وسألت ، وهى ترتعد ، ان كان من الممكن استدعاء الطبيب ، فان ابن عمتها قد اشتد عليه المرض ..

« فأجابها هيثكليف :

ـ اننا نعرف ذلك .. ولكن حياته لاتساوى مليما ، ولن أنفق عليه مليما واحدا ..

« فقالت : ولكننى لاأدرى ماذا افعل ، واذا لم ألق مساعدة من أحد فسوف يموت سريعا .

« فصاح بها السيد :

ـ أخرجى من الحجرة ، ولا تدعينى اسمع كلمة أخرى عنه ابدا .. ان احدا هنا لايبالى بما يصيبه .. فان كنت مهتمة به فاسهرى عليه وتولى تمريضـه ، وان كنت لا يهمك أمره فأوصدى عليه باب حجرته واتركيه وشأنه !

« وعندئذ بدأت ترهقنى بأمره ، فقلت لها أننى رأيت من العناء مايكفينى مع هذا المخلوق النكد ، وان لكل منا مهمتها

وعملها الآن ، ومهمتها هى أن تسهر عليه وتخدمه ، فقد أمرنى مستر هيثكليف بأن اترك هذا العمل لها ..

« أما كيف كانا يعيشان معا ، فهذا مالا اعرفه .. ولكن يخيل الى انه جعل حياتها جحيما ، وكان لا يكف عن العويل والأنين بالليل وبالنهار ، وبذلك حرمها الراحة الا أقل القليل .. وذلك شىء يتبينه المرء من وجهها الشاحب المتقع ، ومن عينيها المثقلتين المكدودتين .. وكانت أحيانا تأتى الى المطبخ شاردة اللب ، وتبدو كأنما تتلهف على طلب المعونة .. ولكنى لم أكن لأعصى أوامر السيد .. فلست اجرؤ قط على عصيان اوامره يامسز دين ! .. ومع اننى كنت ارى من الخطأ عدم دعوة الدكتور كينيث لفحص المريض ، ولكن لم يكن من شأنى أن أنصح بذلك او اتذمر منه ، فقد ابيت دائما ان اتدخل فى هذه الأمور .. وحدث مرة أو مرتين ، ان كنت أفتح باب حجرتى ثانية - بعد ان نأوى الى مخادعنا - فأجدها جالسة تبكى فى مرارة فوق قمة الدرج ، وعندئذ أسرع باغلاق باب الحجرة ثانية ، خشية أن يدفعنى تأثرى الى التدخل .. كنت وقتئذ أشفق عليها وارثى لحالها ، ولكنى مارغبت فى أن افقد مركزى كما تعلمين ..

« وأخيرا ، أتت الى حجرتى ذات ليلة فى جرأة ، وكادت تفقدنى عقلى من الخوف عندما قالت :

- اخبرى مستر هيثكليف بأن ابنه يحتضر .. فأنا واثقة من ذلك هذه المرة .. هيا انهضى واذهبى اليه !

« وما ان نطقت بهذه الكلمات حتى اختفت عن أنظارى .. وأقول لك الحق اننى لم أتحرك من فراشى زهاء ربع ساعة قضيته أرهف السمع وارتعد من الخوف .. ولكنى لم أسمع شيئا .. كان المنزل يخيم عليه صمت عميق .. فقلت لنفسى :

« لقد أخطأت ، ولا بد انه أفاق من النوبة التى غشيته ! .. لذلك لاحاجة بى الى ازعاجهم » .. وغلبنى النعاس ، ولكن نومى قطعه ثانية رنين الجرس وهو يدوى حاداً رهيباً ـ وهو الجرس الوحيد الذى بالمنزل ، وقد وضع فى حجرة لينتون خصيصا له ـ وسمعت السيد ينادينى لأرى ما هنالك ، ولأنذرهم بأنه لايود أن تتكرر هذه الضجة ثانية ..

« عندئذ أبلغته رسالة كاثرين، فراح يسب ويلعن، وما لبث ان خرج بعد دقائق قليلة ، وفى يده شمعة موقدة ، ثم تقدم الى حجرتهما .. فتبعته .. كانت كاثرين تجلس بجوار الفراش ، ويداها مطبقتان فوق ركبتيها .. ومضى حموها نحو الفراش ، ورفع الشمعة أمام وجه لينتون ، وتطلع اليه ، ثم تحسسه .. وبعد ذلك تحول نحوها قائلا :

ـ بماذا تحسين الآن ياكاثرين ؟

« فلم تنبس ببنت شفة ، فعاد يقول :

ـ بماذا تحسين الآن ؟

« وعندئذ أجابته :

ـ انه أصبح بمنجاة منك ، وغدوت حرة ! .. وكان ينبغى أن اكون راضية ، ولكن ..

« ثم أردفت فى مرارة لا تستطيع كتمانها :

ـ ولكنك تركتنى أكافح الموت طويلا ، حتى لم اعد احس او ارى سوى الموت .. اننى أحس كأننى انا الميتة !

« والواقع انها كانت تبدو أشبه بذلك، فأحضرت اليها شيئا من النبيذ .. وكان هيرتون وجوزيف ، اللذان أيقظهما رنين

الجرس ووقع أقدامنا ، ثم سمعا كلامنا من خارج الحجرة ، قد دخلا علينا .. كان جوزيف ، فيما أعتقد ، مسرورا للتخلص من الفتى .. أما هيرتون فكان يبدو منزعجا قليلا ، وان كان اهتمامه بالحملقة فى وجه كاثرين ، أكثر من تفكيره فى لينتون .. ولكن السيد أمره بالعودة الى فراشه ثانية ، لأننا فى غير حاجة الى معونته .. وبعد ذلك أمر جوزيف بنقل الجثة الى حجرته ، وطلب الى أن أعود الى غرفتى .. وهكذا تركنا مسز لينتون وحدها ..

« وارسلنى فى الصباح لأخبرها بأنها يجب ان تنزل كى تتناول افطارها .. ولكنها كانت قد خلعت ثيابها وبدا عليها كأنما تهم بالذهاب الى الفراش ، فقالت لى انها مريضة لا تستطيع النزول ، وهو شىء لم يأخذنى العجب منه .. فلما أبلغت ذلك لمستر هيثكليف أجابنى قائلا :

ـ حسنا .. دعيها كذلك الى ما بعد تشييع الجنازة ، وعليك أن تذهبى اليها بين الحين والآخر لتحملى اليها ما يلزمها .. ولكن اخبرينى بمجرد أن تريها تحسنت .. »

وقد مكثت كاثى معتكفة فى حجرتها أسبوعين ، حسبما ذكرت زيللا ، التى كانت تزورها مرتين كل يوم ، وأرادت أن تتودد اليها ، ولكن محاولاتها من مظاهر العطف المتزايد كانت تصد على الفور فى كبرياء وترفع ..

وصعد اليها هيثكليف مرة ليطلعها على وصية لينتون .. وكان قد أوصى بكل ماكان يملكه ، وما كانت تملكه هى ، من أموال منقولة ، الى أبيه .. فقد ارغم المسكين ، او اغرى ، على ذلك خلال الأسبوع الذى غابته فى منزلها عند موت أبيها .. أما الأرض والعقار فلم يستطع ادخالهما فى الوصية لأنه كان لايزال قاصرا لا يمكنه التصرف فيهما .. وعلى كل حال

فان مستر هيثكليف طالب باثبات ارثه وارث زوجة ابنه فيهما ، وعين مشرفا على نصيبها فى التركة .. ومهما يكن من أمر فان كاثرين لم تكن تستطيع التعرض له فى حيازته لمتلكاتها ، اذ كانت مجردة من الأصدقاء والنقود ..

ومضت زيللا تقول لى : « لم يكن أحد يقرب باب حجرتها قط – عدا المرة التى صعد اليها فيها مستر هيثكليف – سواى .. كذلك لم يكن أحد يسأل عنها البتة .. وكانت المناسبة الأولى التى نزلت فيها الى حجرة الجلوس ، بعد ظهر يوم أحد ، وكنت قد حملت اليها طعام الغداء ، فوجدتها تبكى وتقول انها لم تعد تحتمل البقاء فى البرد .. فأخبرتها بأن السيد يزمع الذهاب الى « ثرشكروس جرانج » ، وان وجود ايرنشو ووجودى لايجب أن يحول دون نزولها .. وهكذا ماكادت تسمع حوافر جواد هيثكليف ينطلق به خارجا ، حتى ظهرت فى حجرة الجلوس ، مجللة بالسواد ، وقد أزاحت غدائرها الذهبية وراء أذنيها فى بساطة كأنها واحدة من المتدينات المتزمتات .. فلم يكن فى وسعها أن ترخى غدائرها كعادتها .. وكنت وجوزيف نذهب عادة الى الهيكل فى أيام الآحاد .. (قالت مسز دين مفسرة ان الكنيسة الآن بغير قس ، ولذلك يستخدمون مكان العماد فى جيمرتون هيكلا للصلاة) .. وكان جوزيف قد ذهب يومئذ ، فرأيت من الأوفق أن أمكث بالمنزل .. فان الأفضل دائما أن يظل الشباب تحت اشراف شخص اكبر سنا ! .. كما ان هيرتون ، مع حيائه وخجله ، ليس مثالا للمسلك الرقيق .. وقد افهمته ان ابنة عمته قد تحضر لتجلس معنا ، وانها اعتادت دائما أن ترى يوم الأحد مبجلا .. ونصحت له بأن يدع العبث ببنادقه وغيرها من مشاغله المنزلية ، مدة مكثها معنا .. وما كاد يسمع ذلك النبأ حتى تورد وجهه وراح ينظر الى ثيابه ويديه ،

وسرعان ما اختفت آثار الشحم والبارود فى دقيقة واحدة .. ففهمت أنه ينوى الجلوس فى صحبتها ، وحدست من مسلكه انه يريد أن يكون لطيف المعشر ، حسن المظهر .. وعندئذ ضحكت ضحكة رنانة لا أجرؤ على مثلها فى وجود السيد، ثم عرضت عليه أن أساعده فى اصلاح شأنه ـ اذا اراد ـ بعد أن رحت أمازحه واضحك من ارتباكه .. فبدا عليه الغضب وزمجر ساخطا لاعنا !

واستطردت زيللا تقول ، وقد رأت عدم ارتياحى لمسلكها:

ـ لعلك يامسز دين ترين سيدتك الصغيرة من الرقة والثقافة بحيث لاتليق بمستر هيرتون ! .. ولعلك على حق ! .. ولكني شد ما وددت أن اطامن من كبريائها قليلا .. ثم ما الذى ستنفعها به ثقافتها ورقتها الآن ؟ .. انها فقيرة مثلك ومثلى .. بل أجزم انها اشد فقرا ! .. فأنت تدخرين مرتبك ، وبدأت انا احذو حذوك !

وسمح هيرتون لزيللا بأن تساعده فى اصلاح هندامه ، فراحت تطريه وتتملقه لتجعله رضى الخلق مبسوط المزاج .. وهكذا ما أن أتت كاثرين ، حتى كان قد نسى اهاناتها السابقة له ، وأقبل عليها يحاول أن يبدو لطيفا معها ، حسبما روت لى مدبرة المنزل اذ قالت :

ـ دخلت السيدة الصغيرة ترتعد من البرد كأنها قطعة من الجليد ، وترفع رأسها شامخة كأنها احدى الأميرات .. ونهضت من مجلسى ، وعرضت عليها مقعدى الكبير ذا المسندين .. كلا .. لقد أشاحت بوجهها ، وشمخت بأنفها استنكارا لتلطفى !.. ونهض ايرنشو كذلك ، وطلب اليها أن تأتى الى الأريكة فتجلس ملاصقة للمدفأة ، قائلا انه واثق من أنها تكاد تموت من البرد !

« فأجابته وهى تضغط على الكلمة الأخيرة بكل ماوسعها من ازدراء :

ـ لقد ظللت شهرا أو أكثر أكاد اموت من البرد !

« ثم أحضرت لنفسها مقعدا وجلست بعيدا عنا كلينا .. وظلت تجلس ساكنة حتى سرى الدفء فى بدنها ، وعندئذ بدأت تجيل أنظارها حولها ، فاكتشفت عددا من الكتب فوق رف الصوان ، فاستوت قائمة على قدميها ثانية ، وحاولت أن تمد ذراعها لتحضرها ، ولكن الكتب كانت مرتفعة عن متناولها .. وبعد أن لبث ابن خالها يرقب محاولاتها برهة ، استجمع شجاعته أخيرا ونهض لمساعدتها .. فأمسكت بثوبها وتلقت فيه أول مجموعة من الكتب وصلت اليها يده ..

« كان ذلك تقدما باهرا من الفتى ! .. ومع انها لم تشكره ، الا انه كان يشعر بأنه قد جوزى خير الجزاء بقبولها مساعدته .. ووافته الجرأة ليقف خلفها وهى تقلب فى الكتب ، ثم تمادى الى درجة الانحناء ليشير الى مايثير اهتمامه فى بعض الصور القديمة التى تتضمنها .. ولم تروعه تلك الطريقة الوقحة التى كانت تجذب بها الصفحة من تحت اصبعه ، بل كان يكتفى بأن يبتعد قليلا الى الخلف ، ثم يتطلع اليها بدلا من الكتاب ! .. واستمرت تقرأ ، أو تبحث عن شيء تقرؤه .. وبدأ اهتمامه يتركز تدريجيا فى دراسة غدائرها الحريرية الكثيفة ، فلم يكن يستطيع رؤية وجهها ، كما انها كانت لا تستطيع أن تراه ! .. ولعله لم يكن منتبها تماما لما اقدم عليه ، وانما كان مثله مثل طفل يجتذبه لهب الشمعة ، عندما تحول من مجرد النظر الى اللمس .. فقد مد يده وربت على احدى غدائرها فى رفق بالغ كأنه يداعب عصفورا .. وكأنما طعنها بسكين فى عنقها ! .. فقد استدارت الى الخلف ثائرة ، وهى تصيح به فى نبرات تفيض ازدراء واشمئزازا :

ـ امش من هنا حالا ! .. كيف تجرؤ على أن تلمسنى ؟.. ولماذا تقف هنا ؟ .. اننى لا اطيقك البتة ! .. وسوف اعود الى حجرتى ثانية ، اذا اقتربت منى بعد ذلك !

« فتراجع مستر هيرتون ، وقد اكتسى وجهه طابعا من البلاهة ، ثم جلس على الأريكة فى هدوء وسكون ، بينما استمرت تقلب صفحات كتبها أكثر من نصف ساعة .. وأخيرا قام هيرتون ودنا منى ليهمس فى اذنى :

ـ اسأليها ان تقرأ لنا يازيللا ، فقد جمدت أطرافى من الجلوس ساكنا لا أفعل شيئا .. ثم اننى أحب .. اعنى يمكن ان أحب سماع صوتها .. ولكن لاتقولى اننى طلبت ذلك ، بل اجعلى السؤال من تلقاء نفسك ..

« فقلت فى الحال :

ـ ان مستر هيرتون يود لو قرأت لنا قليلا يا سيدتى .. وسوف يقدر لك هذا العطف ، ويشكرك عليه كثيرا ..

« فقطبت حاجبيها ، ثم رفعت رأسها ، لتجيب :

ـ ان مستر هيرتون ، وسائر عصابتكم جميعا ، سوف تحسنون صنعا لو أدركتم أننى أرفض كل زعم لكم بهذا العطف الذى تجدون من النفاق مايكفى لاظهاره نحوى .. اننى أحتقركم ، ولن يكون لدى ما أقوله لأى واحد منكم .. فعندما كنت على استعداد لأن أهب حياتى لقاء كلمة عطف واحدة ، أو مجرد رؤية وجه واحد منكم ، ظللتم جميعا بعيدا عنى ، وتجنبتمونى !.. ولكنى لن أشكو اليكم ! .. وما دفعنى الى النزول الى هنا سوى البرد ، لا الرغبة فى التسلية ولا فى الاستمتاع بصحبتكم !

« فغمغم ايرنشو :

ـ ما الذى كان فى وسعى أن أفعله ؟ .. وكيف يمكن أن الام .. ؟

« فقاطعته مسز هيثكليف :

ـ أوه ! .. اننى أستثنيك مما كنت أقول .. فما شعرت البتة بأنى فى حاجة الى مثل اهتمامك !

« فقال :

ـ ولكنى عرضت أكثر من مرة ، وسألت مستر هيثكليف أن يسمح لى بأن أرعاك ..

« وكأنما كان يزيد قحتها وسلاطتها ضراما ، اذ أجابته مقاطعة :

ـ اصمت ! .. خير لى أن أغادر الدار ، او أذهب الى اى مكان ، من ان يطرق صوتك الكريه مسامعى !

« فغمغم هيرتون قائلا انه من ناحيته يرى ان تذهب الى الجحيم ! .. ثم نهض وتناول بندقيته المعلقة ، وحرر نفسه من تقاليد يوم الأحد ، فلم يعد يتقيد بها بعد ذلك ! .. ثم مضى يتحدث الى فى انطلاق وتحرر ، وسرعان مارأت من الأوفق ان تنسحب الى وحدتها وعزلتها .. ولكن اشتداد الصقيع بعد ذلك أرغمها، رغم كبريائها ، على التنازل وارتضاء رفقتنا يوما بعد يوم .. أما أنا فقد عنيت بأن أجنب نفسى الازدراء والاحتقار لقاء ما أبديته نحوها من طيب الشمائل ، فأصبحت منذ ذلك الحين فى مثل جمودها وتصلبها .. والواقع انها لاتلقى بيننا من يحبها أو يودها .. فهى لاتستحق حبا أو ودا .. لأن أقل كلمة يقولها احدنا لها، تجعلها تتلوى فى وجهه دون ان توقر احدا ! .. بل انها لاتتورع عن ان تثور

فى وجه السيد نفسه على نحو يجعله ينهال عليها لطما وصفعا .. وكلما ازداد ايذاؤه لها ، كلما ازداد حقدها وكثرت السموم التى تنفثها .. »

ولقد صممت ، فى بادىء الأمر ، عند ما سمعت حديث زيللا هذا ، على ان أترك وظيفتى واستأجر كوخا ، واحضر كاثرين لتعيش معى فيه .. ولكن مستر هيثكليف لن يوافق على ذلك الا مثلما يرضى بأن يسكن هيرتون منزلا مستقلا !.. ولست أرى علاجا لحالتها الآن ، الا اذا استطاعت الزواج ثانية ، وهو شىء ليس فى قدرتى أن أحققه !

. . . .

وهكذا انتهت قصة مسز دين عن هيثكليف وأسرته ..

أما أنا ، فعلى الرغم من تكهن الطبيب ، فقد بدأت استعيد قواى فى خطى حثيثة .. ومع اننا لانزال فى الأسبوع الثانى من شهر يناير ، فقد عزمت على الخروج بعد يوم أو اثنين ، فأمتطى جوادا ، واذهب الى « مرتفعات ويذرنج » لأخبر المالك بأننى أعتزم قضاء الشهور الستة القادمة فى لندن ، وان له ، اذا شاء ، أن يبحث عن مستأجر آخر « للجرانج » بعد شهر اكتوبر .. فلن أقضى شتاء آخر فى هذه المنطقة مهما أعطيت ! !

الفصل الحادى والثلاثون

كان الأمس يوما مشرق الضياء ، ساكن الريح ، قارس البرد .. وقد ذهبت الى « المرتفعات » كما انتويت، ورجتنى مدبرة منزلى أن أحمل رقعة صغيرة منها الى سيدتها الشابة،

فلم أرفض رجاءها ، لأن المرأة الطيبة لم تكن تدرك ما فى رجائها هذا من غرابة وشذوذ ..

ووجدت باب المنزل الخارجى مفتوحا، ولكن البوابة المنيعة كانت موصدة ، كما وجدتها فى زيارتى السابقة .. فطرقت فوقها بيدى، ودعوت هيرتون ايرنشو من حيث كان يعمل بين أحواض الحديقة ، فرفع السلسلة التى كانت موصدة بها ، ودخلت .. وقد وجدت الفتى وسيما لطيفا ، بقدر ما تكون الوسامة والرقة الريفية .. وقد أعرته انتباها خاصا هذه المرة ، ولكنه يومئذ كان يفعل كل مافى وسعه ليظهر أقل القليل من ميزاته !

وسألته ان كان مستر هيثكليف موجودا ، فأجابنى : « كلا .. ولكنه سيحضر فى موعد الغداء » وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة وقتئذ ، فأعلنت عزمى على الدخول وانتظاره.. وما كدت أقول ذلك حتى رمى بأدواته ، وصحبنى الى الداخل ، لا ليبقى فى رفقتى بديلا لمضيفى ، بل ليقوم بمهمة كلب الحراسة ..

دخلنا الى حجرة الجلوس معا .. وكانت كاثرين هناك ، تشغل وقتها فيما يجدى ، اذ كانت تعد بعض الخضر للوجبة المقبلة !.. وكانت تبدو أكثر تجهما وأقل بشاشة مما رأيتها اول مرة .. بل انها لم ترفع عينيها لتنظر الى ، واستمرت فى عملها بنفس الاغفال لمظاهر اللياقة المتعارف عليها ، الذى لمسته منها من قبل.. فلم ترد انحناءتى وتحيتى ، وتجاهلتهما تماما .. فقلت لنفسى :

— انها لاتبدو لطيفة ودودة كما حاولت أن تقنعنى مسز دين ! .. انها آية من آيات الجمال حقا ، ولكنها ليست ملاكا !

وطلب اليها ايرنشو فى جفاء ان تأخذ أشياءها الى المطبخ، فدفعتها بعيداعنها وهى تجيبه فى سرعة : « خذها بنفسك ! » .. ثم قامت فذهبت الى النافذة وجلست على مقعد صغير، وراحت تحفر أشكالا لبعض الطيور والحيوانات فى قشور ثمار « اللفت » التى كانت فى حجرها .. فدنوت منها ، متظاهرا بالرغبة فى مشاهدة الحديقة ثم أسقطت رقعة مسز دين فوق ركبتها فى براعة وحذق ، كما خيل الى وقتئذ ، فى غفلة من هيرتون .. ولكنها ألقت بها بعيدا وهى تسألنى بصوت مرتفع :

ـ ما هذه ؟

فساءنى أن كشفت بهذه الحماقة عن حسن صنيعى ، وخشيت أن يظن أن الرسالة منى ، فقلت :

ـ انه خطاب من رفيقة قديمة لك ، هى مدبرة المنزل فى « الجرانج »

وما ان سمعت ذلك حتى همت بالتقاطه وقد غمرها الفرح، لولا أن هيرتون كان أسبق منها اليه، فأخذه ووضعه فى جيب صدريته ، قائلا ان مستر هيثكليف يجب أن يراه أولا .. وعند ذلك أشاحت بوجهها عنا فى صمت ، ورأيتها تخرج منديلها خلسة وترفعه الى عينيها .. أما ابن خالها فبعد أن راح يناضل مشاعره الرقيقة فى بادىء الأمر ، اخرج الخطاب من جيبه وطوح به الى الأرض بجوارها ، بقدر ما وسعه من خشونة وفظاظة .. والتقطته كاثرين ومضت تطالعه فى لهفة وتشوق ، ثم أخذت تلقى على قليلا من الأسئلة المعقولة والتافهة عن سكان منزلها السابق .. وظلت لحظة تحدق بأنظارها ناحية التلال ، وما لبثت ان غمغمت تناجى نفسها :

ــ ليتنى أستطيع ان أركب مهرى « مينى » هناك ! .. وشد ما أتوق الى تسلق الشجر هناك ! .. اواه ! .. اننى متعبة .. لقد تجمدت أطرافى ياهيرتون !

ثم أسندت رأسها الجميل الى قاعدة النافذة وهى تخفى تنهدها بالتثاؤب ، ثم استغرقت فى شرودها الحزين ، غير مكترثة ، أو منتبهة ، ان كنا نراها ..

وبعد أن جلست صامتا بعض الوقت ، خاطبتها قائلا :

ــ ألا تدرين يامسز هيثكليف اننى عرفتك من قبل ؟ .. وان أواصر المعرفة قد توثقت بيننا حتى لأجد من الغريب ألا تأتى فتتحدثى الى ؟ .. ان مدبرة منزلى لاتكل عن الحديث عنك وامتداحك لحظة واحدة ، ولسوف يسوؤها كثيرا أن أعود اليها صفر اليدين من اية انباء عنك أو منك ، اللهم الا انك تلقيت خطابها فلم تقولى شيئا !

فبدا عليها الاستغراب من حديثى ، وسألتنى :

ــ هل تحبك ايلين ؟

فأجبت مترددا :

ــ نعم .. كثيرا ..

ــ يجب أن تخبرها اذن اننى كنت أود الرد على خطابها لولا اننى لا أملك شيئا من وسائل الكتابة ، وليس عندى كتاب واحد أستطيع أن انزع منه ورقة لأكتب عليها ..

فهتفت متعجبا :

ــ لا كتب عندك ؟ .. وكيف بالله تطيقين العيش هنا

بدونها ، لو كان لى أن أسـأل هـذا السؤال ؟ .. اننى رغم مالدى من مكتبة عظيمة ، ينتابنى السأم كثيرا فى «الجرانج» .. أما اذا حرمتنى كتبى ، فاننى يتملكنى اليأس المرير !

فقالت كاثرين :

ـ لقد كنت أقرأ فيها دائما ، عندما كانت عندى .. ولكن مستر هيثكليف لايقرأ شيئا قط ، ولذلك وضع فى ذهنه أن يدمر كتبى جميعا .. وها قد مضت أسابيع برمتها لم تقع لى نظرة واحدة على كتاب .. ولكن حدث مرة ان رحت أنقب فى ذخيرة جوزيف من كتب الدين ، وركبه من ذلك هم عظيم .. كما حدث مرة ، ياهيرتون ، أن وقعت على مكتبة خفية فى حجرتك ، بعض الكتب اللاتينية واليونانية، وبعض القصص وديوان شعر ، وكلها أصدقاء قدماء لى، فأحضرت الأخير الى هنا .. وقد كنت تجمعها، كطائر العقعق الذى يجمع الملاعق الفضية لمجرد حبه للسرقة ! .. فانها عديمة الجدوى لك .. او لعلك كنت تخفيها بتلك الروح الخبيثة ، وهى انك مادمت عاجزا عن الاستمتاع بها ، فلن يستمتع بها غيرك ! .. وربما كان حسدك هذا هو الذى دفع مستر هيثكليف الى حرمانى من ذخائرى ؟ .. ولكن معظمها قد سـطر فى ذهنى ، وطبع على صفحة قلبى ، ولن تستطيع أن تحرمنى من هذا أو ذاك!

فغدا وجه هيرتون ارجوانيا وهو يسمع ابنة عمته تفشى سره وتكشف عن مجموعته الخاصة من كتب الأدب ، وأخذ يتمتم متلعثما بألفاظ حانقة حاول بها أن ينـكر اتهاماتها ، فتقدمت لنجدته ، قائلا :

ـ ان مستر هيرتون شديد الرغبة فى زيادة حصيلته من العلم والمعرفة .. وهو لم يكن يحسدك على مابلغته من ثقافة،



(صفحة ٤٤٦)

وانما كان يغبطك .. ولسوف يغدو طالبا نابها فى سنوات قليلة ..

فقالت كاثرين :

ـ وهو يريدنى أن أغرق فى لجة الجهل اثناء ذلك ! .. نعم ، لقد سمعته يحاول الهجاء والمطالعة وحده ، وكم من أخطاء عجيبة وقع فيها ! .. ليتك تعيد قراءة « مطاردة الصيد » كما كنت تفعل بالأمس ! .. لقد كانت مهزلة وأى مهزلة !.. لقد سمعتك تقرأها ، وسمعتك تبحث فى القاموس عن الكلمات الصعبة ثم تسب وتلعن لأنك لا تستطيع أن تقرأ شرحها !

ولا ريب أن الشاب كان يراه امرا بالغ السوء ان يسخر أحد منه لجهله ، ثم يسخر منه بعد ذلك لمحاولته التخلص من هذا الجهل ! .. وقد شعرت بمثل شعوره ، وتذكرت ماروته لى مسز دين عن محاولته الأولى فى انارة ظلمة الجهل التى كان يعيش فيها حبيسا ، فقلت :

ـ ولكننا جميعا يامسز هيثكلف بدأنا بمثل هذه البداية .. كلنا كنا نتعثر ونترنح على عتبة المعرفة .. ومع ذلك فلو كان مدرسونا قد سخروا منا بدلا من أن يساعدونا ، لازداد تعثرنا وترنحنا ، ولما بلغنا مابلغناه ..

فأجابت :

ـ آه ! .. اننى لا أريد أن أحد من تحصيله، ولكنى لاارى له حقا فى الاستيلاء على ما املكه ، ثم يجعله يبدو سخيفا فى نظرى بأخطائه القبيحة وسوء نطقه الفظيع .. ان هذه الكتب ، سواء أكانت نثرا أم شعرا ، تقترن فى ذهنى بذكريات أخرى .. واني اكره ان يحط من قدرها ويدنسها عند ما

يلوكها فى فمه ! .. وفضلا عن ذلك كله فقد اختار أحب القطع الى نفسى ، تلك التى أحب أن أرددها اكثر من غيرها ، كأنما يصدر فى ذلك عن عمد ناشىء من خبث طويته ..

فأخذ صدر هيرتون يعلو ويهبط فى صمت لحظة طويلة .. كان يعتمل فى نفسه شعور قاس من الهوان والحنق معا ، لم يكن فى طاقته أن يكبحه .. فرأيت من حسن اللياقة انأجنبه الحرج ، ومن ثمت نهضت ومضيت نحو الباب ووقفت فى مدخل الحجرة أقلب النظر فى المنظر الخارجى الممتد أمامى .. فاذا به يتبعنى ، ويغادر الحجرة .. وما لبث أن عاد بعد زمن يسير ، يحمل بين يديه عددا من الكتب والمجلدات القى بها فى حجر كاثرين وهو يصيح :

ــ خذيها ! .. فما عدت أريد ان أسمع عنها او اقرأها او افكر فيها بعد الآن !

ــ ولكنى لن آخذها .. سوف أقرن بينها وبينك ، فأبغضها !

ومع ذلك فقد تناولت أحدها ، وكانت تبدو عليه كثرة الاستعمال والتقليب ، وراحت تقرأ فيه بنغمة متعثرة كمبتدىء يتعلم الهجاء .. ثم انطلقت ضاحكة ، وطوحت بالكتاب وهى تستطرد ، فى اثارة واستفزاز ، قائلة : «اسمع هذه أيضا ! » .. ثم بدأت تلقى شعرا من ملحمة قديمة بالنغمة واللهجة نفسها !

عندئذ لم تعد مشاعره تحتمل المزيد من العذاب ، فسمعته ــ والحق اننى لم أستهجن مافعله ــ يضع حدا لانطلاق لسانها الخبيث بحركة من يده ! .. لقد فعلت الشقية كل مافى وسعها لايذاء مشاعر ابن خالها ، وهى مشاعر ان كانت لم

تلق نصيبها من التهذيب ، الا أنها كانت شديدة الحساسية .. فكان الرد البدنى هو الوسيلة الوحيدة التى يملكها لتصفية الحساب ، وسداد الدين للمعتدى ! .. وبعد ذلك جمع الكتب وقذف بها فى وسط النيران .. وقد قرأت فى أساريره مبلغ مايعانيه من الم اذ يقدم هـذه الضحية على مذبح الحقـد والغيظ ! .. وخيـل الى ، بينما كانت النـار تلتهمها ، انه يستعيد ذكرى ماوفرته له من سرور وانبساط ، ونشـوة النصر والمتعة المتزايدة اللتين استمدهما من هذه الكتب .. بل لقد خيل الى اننى أستطيع أن أحدس الباعث له على هذه الدراسات التى كان يقوم بها فى الخفاء ! .. لقـد كان قانعـا بعمله اليومى ، ومتعه الحيوانية البدائية ، حتى عبرت كاثرين طريقه .. فكان خزيه من ازدرائها ، وأمله فى رضائها ، هما اللذان استحثاه فى بادىء الأمر على أن ينشد التقدم والارتقاء .. وبدلا من أن تحميه محاولاته نحو السـمو بنفسـه من الخزى ، او تنيله الرضاء ، وجدها تنقلب الى عكس النتيجة التى كان يرجوها ..

فصاحت كاثرين وهى تلعق شفتها الدامية ، وتنظر الى الكتب المحترقة بعينين تفيضان حنقا وغيظا :

ــ نعم .. فهذا كل ما يستطيع جلف مثلك أن يجنيه من فائدة منها !

وعندئذ أجابها فى ضراوة :

ــ خير لك أن تمسكى لسانك الآن !

ثم غلب عليه الانفعال فمنعه من الاسترسال فى الكلام ، وأسرع نحو الباب ، فتنحيت قليلا حتى يستطيع المرور .. ولكن قبل أن يجتاز الدرجة الحجرية، التقى به مستر هيثكليف وكان قادما من الممر ،فوضع يده فوق كتفه ، قائلا :

ــ ماذا تريد أن تفعل الآن يا بنى ؟

فأجاب هيرتون :

ــ لا شىء .. لا شىء !

ثم تملص منه ، وابتعد مسرعا لينشد فى الوحدة متنفسا عن حزنه وغضبه .. فاتبعه هيثكليف بأنظاره لحظة ، ثم تنهد وغمغم يقول لنفسه ، دون أن يشعر بوجودى خلفه :

ــ لو كذبت نفسى لكنت بالغ الشذوذ ! .. ولكنى عند ما أبحث عن شبه ابيه فى وجهه ، اجد ملامح عمته تزدادوضوحا يوما بعد يوم ! .. كيف أصبح يشبهها الى هذا الحد ، بحق الشيطان ؟ .. اننى لا أكاد أحتمل ان اراه !

ثم غض من أنظاره ، ومضى الى داخل الحجرة مهموما مكتئبا .. كانت ترتسم فى محياه لمحة من القلق والاضطراب لم الحظها عليه قط من قبل .. بل لقد بدا فى نظرى أشد نحولا وهزالا .. وكانتزوجة ابنه قد فرت هاربة الىالمطبخ، على أثر رؤيته من خلال النافذة .. وهكذا بقيت فى الحجرة وحدى .

وتقدمت نحوه محييا ، فأجاب :

ــ يسرنى أن أراك قد شفيت وغادرت المنزل ثانية يا مستر لوكوود ! .. وهو شعور ينبعث بعضه عن الأنانية ! .. فلا اظننى قادرا الآن على تعويض خسارتنا فيك فى هذه البقعة الموحشة ! .. ولقد تملكنى العجب أكثر من مرة فيما جاء بك الى هنا ..

فكان جوابى : « احسبها كانت نزوة خاسرة ياسيدى !.. أم لعلها نزوة خاسرة هى تلك التى تحثنى الآن علىالرحيل..

فسوف أرحل الى لنذن ، فى الأسبوع القادم ، ولا بد لى من ان انذرك بأننى لا أحس ميـــلا او اســـتعدادا للاحتفـــاظ « بثرشكروس جرانج » بعد السنة التى اتفقت معك على استئجاره خلالها .. واعتقد اننى لن أقيم فيه بعد الآن ! »

ـ حقا ؟ .. أحسبك قد تعبت من هذا النفى عن العالم ، أليس كذلك ؟ .. ولكن اذا كنت قد أتيت لتطلب اعفاءك من سداد ايجار مكان لا تنوى أن تشغله ، فان رحلتك الى هنا لا طائل وراءها ! .. فانى لا اتساهل البتة فى اقتضاء حقوقى من أى انسان !

فصحت به ، وقد أثارنى قوله كثيرا :

ـ أنني ما أتيت لأطلب شيئا من ذلك .. ولو اردت باقى الايجار الآن ، فانى على استعداد لسداده ..

ثم أخرجت دفتر الشيكات من جيبى ، ولكنه قال فى برود :

ـ كلا .. كلا .. فسوف تترك وراءك ما يكفى لســـداد دينك ، اذا لم تحضر بنفسك لدفعه.. أما الآن فلست فى عجلة من الأمر ! .. اجلس يا مستر لوكوود ، وتناول غداءك معنا ، فلا بأس من الترحيب بضيف يأمن المرء من تكرار زيارته ! .. كاثرين ! .. أعدى المائدة ! .. أين انت ؟

فظهرت كاثرين ثانية ، تحمل مجموعة من الشوك والسكاكين .. وعندئذ غمغم هيثكليف يقول لها على حدة :

ـ يمكنك أن تتناولى غداءك مع جوزيف ، وابقى فى المطبخ حتى ينصرف !

وأطاعت تعليماته فى دقة بالغة .. ولعلها لم تجد ما يغريها بمخالفته .. أو لعل معيشتها بين المهرجين واعداء البشر قد

جعلتها لا تستطيع أن تقدر من هم ارقى منهم عند ما تلتقى بهم ..

وكان غداء كئيبا نوعا ما ، بين مستر هيثكليف فى عبوسه وتجهمه، وبين هيرتون فى صمته الأبكم . وما لبثت أن ودعتهما مستأذنا فى الانصراف مبكرا .. وكنت أود أن أخرج من باب المطبخ، عسى أن القى نظرة اخيرة على كاثرين، وأغيظ جوزيف العجوز.. ولكن هيرتون كان قد تلقى الأمر باحضار جوادى امام الباب الرئيسى ، وشيعنى مضيفى بنفسه الى الباب ، وهكذا لم تسنح لى الفرصة لتحقيق رغبتى ..

وبينما كنت أنطلق فى الطريق نحو منزلى كنت أقول لنفسى :

ـ يا لها من حياة كئيبة تلك التى تمضى فى هذه الدار ! .. وما كان اروعه من ادراك مسز لينتون هيثكليف لشىء أكثر شاعرية وخيالا مما فى القصص الخرافية ، لو أننى وهى عقدنا أواصر المحبة بيننا ، كما تمنت مربيتها الطيبة ، ثم ارتحلنا معا الى جو المدينة المثير النابض بالحياة !

الفصل الثانى والثلاثون

سنة ١٨٠٢

دعيت فى شهر سبتمبر الحالى الى ارتياد البرارى فى ضيعة صديق لى يقيم فى الشمال ، وكنت فى طريقى اليه عند ما وجدت نفسى ، على غير انتظار ، على بعد خمسة عشر ميلا من قرية « جيمرتون » .. وكان صاحب نزل ريفى على الطريق يحمل دلوا من الماء لينعش به جيادى ، عند ما مرت به عربة محملة بالشوفان الأخضر الحديث الحصاد ، فصاح به :

- هذه من جيمرتون ، ها ؟ .. انهم دائما يتأخرون فى الحصاد ثلاثة أسابيع عن غيرهم من الناس !

وكانت ذكرى اقامتى فى تلك الناحية قد غشيتها غلالة رقيقة حالمة ، فانبعثت قائلا :

- جيمرتون ؟.. اننى أعرفها.. كم تبعد عن هذا المكان ؟

فأجاب الفندقى :

- بيننا وبينها خمسة عشر ميلا، وطريق شديد الوعورة !

فتملكتنى رغبة مفاجئة فى زيارة « ثرشكروس جرانج » .. وكان النهار يوشك ان ينتصف ، وقدرت اننى أستطيع قضاء الليلة تحت سقف منزلى ، كما كنت سأقضيها فى نزل ريفى صغير .. وفضلا عن ذلك ففى وسعى أن أستغنى عن يوم بسهولة ، لأرتب أمورى مع صاحب المنزل ، وبذلك أوفر على نفسى مشقة الحضور الى هذه الأنحاء مرة أخرى .. فانتظرت ريثما ارتحت قليلا ، وأمرت خادمى بأن يستفسر عن الطريق الى القرية ، وما لبثنا أن وصلنا اليها بعد ثلاث ساعات لقيت فيها دوابنا عناء عظيما ..

تركت خادمى فى القرية ، وتقدمت وحدى أهبط الوادى .. كانت الكنيسة القاتمة تبدو أشد قتامة ، والمقبرة الموحشة تلوح أكثر وحشة .. ولمحت شاة من شياه البرارى ترعى الكلأ القصير فوق القبور .. كان الجو جميلا دافئا ، بل أشد دفئا مما يحتمله المسافر ، ولكن الحرارة لم تحل دون استمتاعى بالمناظر الساحرة فوقى وتحتى .. ولو كنت قد رأيتها قرب اغسطس لكان من المحقق ان يدفعنى الاغراء الى قضاء شهر بين ربوعها المنعزلة الموحشة .. فما من شيء أشد فظاعة فى الشتاء، وأشد سحرا وسموا فى الصيف،

من تلك الوهاد المحصورة بين التلال ، وتلك المرتفعات المتناثرة المغطاة بالعشب والكلأ ..

وبلغت « الجرانج » قبيل الغروب ، فطرقت الباب ، ولكن الخدم كانوا معتكفين فى الجزء الخلفى من المنزل ، كما أدركت من ذلك الشريط الأزرق الرفيع الذى كان يتلوى فى الفضاء منبعثا من مدخنة المطبخ ، فلم يسمعنى أحد ، ومضيت بجوادى نحو الفناء .. فرأيت تحت مظلة الباب بنتا فى التاسعة أو العاشرة من عمرها جالسة تحبك صوفا ، كما شهدت امرأة عجوزا متكئة على درج الباب ، ومستغرقة فى تدخين غليونها .. فسألتها :

ـ هل مسز دين فى الداخل ؟

فأجابت :

ـ مسز دين ؟ .. كلا .. انها لا تقيم هنا .. بل هناك فى « المرتفعات » ..

ـ وهل أنت مدبرة المنزل اذن ؟

ـ نعم .. أنا التى أرعاه الآن ..

ـ حسنا .. انني مستر لوكوود ، السيد ! .. ترى هل اجد أية حجرة لايوائى ؟ .. اننى أريد قضاء الليلة هنا ..

فصاحت فى دهشة ، وفى تلك اللهجة الريفية الغريبة :

ـ السيد ؟ .. ماذا ؟ .. من كان يعرف بمقدمك ؟ .. كان يجب أن تبعث بكلمة .. فان المكان كله لاتوجد به حجرة جافة أو مفروشة .. ولا واحدة !

ثم ألقت بغليونها ، واندفعت الى الداخل ، والبنت فى

أعقابها .. فتبعتهما وسرعان ما أدركت صدق ما قالته ، كما تبينت انني كدت أخرجها عن صوابها بظهوري المفاجيء، فطلبت اليها أن تهدأ قليلا واخبرتها بأنني سوف اخرج للنزهة وعليها أن تحاول في تلك الفترة اعداد ركن في حجرة الجلوس لأتناول عشائي فيه ، وأن تعد لي حجرة انام فيها .. قلت لها انني لا أريد ان تكنس المكان أو تمسحه ، فكل ما أحتاج اليه نار مشبوبة ، وفراش جاف نظيف .. وكان يبدو عليها انها راغبة في بذل غاية جهدها لارضائي ، رغم انها دفعت فرشاة الكنس في الموقد خطأ بدلا من محراك النار ، وأخطأت في تناول أدوات عديدة أخرى مما تحتاجه في مهمتها .. ولكني انسحبت ، معتمدا على نشاطها في ان أجد عند عودتي مقاما مريحا .. وكانت « مرتفعات ويذرنج » هدف نزهتي المزمعة ، ولكني ماكدت أخلف الفناء ورائي ، حتى خطرت لي فكرة ، فعدت لأسألها :

ــ هل كلهم بخير في « المرتفعات » ؟

فأجابتني وهي تهرول حاملة دلوا مليئا بالفحم :

ــ نعم .. حسبما نعرف !

وكنت أود ان أسألها عن سبب رحيل مسز دين عن « الجرانج » ، ولكن كان من المحال أن اعوقها وهي في غمرة تلك الأزمه التي تمر بها ، فاستدرت وتركت لها المكان ..

فلما غادرت حدود البستان ، وبدأت ارقى الطريق الحجرى الجانبي المتفرع الى منزل مستر هيثكليف ، مضيت أسير علي مهل ، مع وهج الشمس الغاربة خلفي ، وجلال قمر مشرق أمامي ، الأولى تسير نحو الأفول، والثاني يبدأ في التألق والسطوع .. وقبل أن يصبح المنزل على

مرمى النظر منى ، كان كل مابقى من النهـار ضياء كهرمانى خال من شعاع الشمس ، يمتد على طول الأفق الغربى .. ولكن كان فى وسعي ان ارى كل حصاة فى الممر ، وكل نصل من نصال العشب ، على ضوء ذلك القمر البهى .. ولم أجد نفسى مضطرا الى تسلق البوابة ، أو الطرق عليها ، فما كدت ادفعها بيدى حتى استجابت لى .. فقلت فى نفسى أن هناك تقدما باهرا ! .. وما لبثت ان تبينت تقدما آخر اكتشفته خياشيمى ، فقد كان عبير الريحان والزهور المتسلقة يسبح فى الهواء منبعثا من بين أشجار الفاكهة فى الحديقة ..

وكانت الأبواب والنوافذ كلها مفتوحة .. ومع ذلك، فكما هى الحـال عادة فى مناطق الفحم ، كانت تضىء المدفأة نار رائعة شديدة الوهج ، ان ارتاحت العين لمرآها فان حرارتها مما لا يطاق .. ولكن « مرتفعات ويذرنج » منزل ذو سعة ، يستطيع قاطنوه أن يجدوا فسحة من المكان ليبتعـدوا عن لظاها .. وعلى ذلك فان الاثنين اللذين كانا بحجرة الجلوس وقتئذ ، اتخذا لنفسيهما مجلسا غير بعيد عن النافذة .. كنت أستطيع أن اراهما واسمعهما يتكلمان ، قبل ان ادخل اليهما .. وهكذا تريثت قليلا ورحت أنظر اليهما مرةوأصغى اليهما مرة اخرى ، وقد ثار فى نفسى شعور غريب امتزج فيه الفضول والغيرة معا !

سمعت صوتا رخيما كالأجراس الفضية ، يشدو قائلا :

ـ مضاد .. هذه هى المرة الثالثة التى أعلمك فيها كيف تنطق بالكلمة ، أيها الغبى ! .. ولن أقولها لك مرة اخرى ، فانتبه جيدا والاجذبتك من شعرك !

فأجابها صوت آخر ، فى نبرات عميقة ذات عذوبة :

ـ مضاد ، اذن .. والآن قبلينى اذ أحسنت النطق !

— كلا .. اقرأ القطعة صحيحة أولا دون أن تأتى غلطة واحدة ..

فبدأ المتكلم الرجل يقرأ بصوت مسموع .. كان شابا فى مقتبل العمر ، يرتدى ثيابا انيقة ، ويجلس الى منضدة وأمامه كتاب مفتوح .. وكانت أساريره الوسيمة تتألق بشرا وسرورا ، وعيناه لا تكفان عن الشرود ، فى صبر نافد ، من الكتاب الى يد صغيرة بيضاء كانت موضوعة فوق كتفه ، ولا تفتأ تعيده الى الوعى بلطمة رقيقة على وجنته كلما لاحظت صاحبتها شرود نظراته وعدم انتباهه ! .. كانت صاحبة تلك اليد تقف خلفه ، وغدائرها الذهبية اللامعة تمتزج بين لحظة وأخرى بخصلات شعره الأسمر ، كلما مالت فوقه لتشرف على دراسته .. أما وجهها .. آه ! .. لقد كان سعيدا اذ كان لا يمكنه أن يرى وجهها فى جلسته هذه ، والا لما استطاع الثبات فوق مقعده كما يفعل الآن .. اما انا فكنت اراه .. وكنت اعض على شفتى حانقا ، اذ اضعت الفرصة التى كان يمكن أن تتاح لى لو أننى قمت بعمل ايجابى بدلا من الاكتفاء بالتحديق فى جمالها الباسم ..

وانتهى الدرس ، دون أن يخلو من اخطاء أخرى .. ولكن التلميذ طالب بجائزته ، فتلقى خمس قبلات على الأقل ، ردها فى سخاء وحرارة ! .. وما لبثا أن سارا نحو الباب ، وأدركت من حديثهما انهما يوشكان على الخروج فى نزهة بين الأحراش والبرارى .. وبدا لى أن هيرتون ايرنشو سوف يدعو على من صميم قلبه ، ان لم يكن بلسانه ، بالتردى فى أعمق هوة من الجحيم ، لو أظهرت شخصى التعس بجواره وقتئذ ! .. وشعرت بحقارتى وخبثى ، فأسرعت بالاختفاء وراء ركن المنزل ، ثم مضيت أبحث عن ملجأ لى فى المطبخ .. وقد وجدت بابه مفتوحا هو الآخر ، وعند الباب جلست

صديقتى القديمة نللى دين مشغولة بالحياكة وهى تسلى نفسها بالغناء .. ولكن انشودتها كانت تقاطع من الداخل بألفاظ خشنة تنم عن الازدراء والتذمر ، فى نبرات أبعد ما تكون عن الأنغام الموسيقية !

كان شاغل المطبخ يقول ردا على حديث لنللى لم أسمعه :

ـ اننى لأفضل أن اسمع الشتائم تنصب فى اذنى من الصباح حتى المساء ، ولا أصغى لمجونك أيتها الشمطاء المتصابية ! .. يا للعار ! .. أنه عار صارخ اذ لا استطيع أن افتح الكتاب المقدس ، بينما ترفعين عقيرتك بتمجيد الشيطان والتفاخر بكل شرورك التى لم يولد مثلها على الأرض قط .. آه ! .. انك افعى خبيثة ، وتلك الفتاة افعى خبيثة أخرى ، وهذا الغلام المسكين سوف يضيع بينكما !

ثم اردف يقول فى أنين :

ـ يا للغلام المسكين ! .. لقد قيدتاه بسحرهما .. اننى واثق من ذلك ! .. آه .. ياالهى ! .. اقض فيهما قضاءك الحق ، فلم يعد بين حكامنا قانون ولا عدالة !

فردت عليه المرأة قائلة :

ـ كلا .. والا لكنا الآن جالستين بين كتل الخشب المشتعلة ! .. ولكن صه أيها العجوز المخرف ، واقرأ كتابك المقدس كأى شخص تقى ، ولا تلق بالك الى .. اننى أترنم بلحن جميل هو انشودة « عرس الحورية آنى » ، الذى يتحول الى لحن راقص ..

وكانت مسز دين على وشك البدء من جديد ، عند ما تقدمت نحوها .. وعرفتنى على الفور ، فوثبت قائمة ، وهى تهتف :

ـ لك الله يا مستر لوكوود ! .. كيف خطر لك أن تعود بهذه الطريقة ؟ .. ان كل شيء مغلق في « ثرشكروس جرانج »، وكان يجب عليك أن تنذرنا بمجيئك !

فأجبت :

ـ لقد رتبت الأمر لراحتي هناك، طوال الفترة التي سأمكثها .. فسوف أرحل ثانية غداً .. ولكن خبريني كيف انتقلت الى هنا يا مسز دين ؟

ـ لقد تركت زيللا الخدمة ، فطلب الى مستر هيثكليف الحضور ، على أثر رحيلك الى لندن، على أن ابقى هنا حتى تعود .. ولكن أرجوك أن تدخل اولا .. هل اتيت من « جيمرتون » هذا المساء ؟

ـ بل من « الجرانج » .. فقد اردت أن أنهي عملي مع سيدك، ريثما يعدون لي مكانا للمبيت هناك، لأنني لا احسبني أجد فرصة أخرى لذلك في القريب العاجل ..

وقادتني نللي الى حجرة الجلوس ، وهي تقول :

ـ أي عمل تريد انهاءه يا سيدي ؟ .. لقد خرج الآن ، ولن يعود في الحال ..

ـ مسألة الايجار ..

ـ آه ! .. اذن عليك أن تسوي الأمر مع مسز هيثكليف، أو بالاحرى معي .. فانها لم تتعلم بعد كيف تدير شئونها ، وأنا التي اتولى ذلك نيابة عنها ، فليس ثمت من يقوم بذلك غيري !

فبدت علي الدهشة البالغة ، وعند ذلك اردفت تقول :

ـ آه ! .. أرى أنك لم تسمع بموت هيثكليف !

فهتفت مشدوها :

ـ هل مات هيثكليف ؟ .. منذ متى ؟

ـ منذ ثلاثة شهور .. ولكن اجلس أولا ، ودعنى أحمل قبعتك الى المشجب ، وسوف أخبرك بكل شىء عن هذا الأمر .. ولكن مهلا .. انك لم تأكل شيئا ، أليس كذلك ؟

ـ لست أريد شيئا الآن ، فقد امرت باعداد العشاء فى منزلى .. ولكن اجلسى أنت ايضا .. أننى ما تصورت وفاته قط ! .. فدعينى اسمع كيف حدث ذلك .. لقد قلت انك لا تتوقعين عودتهما فى القريب ، فهل تعنين الفتى والفتاة ؟

ـ نعم .. وانني اضطر الى تأنيبهما كل ليلة لجولاتهما المتأخرة ، ولكنهما لا يكترثان بى ! .. ولكن خذ على الأقل قدحا من جعتك القديمة، وسوف تفيدك لأنك تبدو متعبا ..

ثم أسرعت لتحضره قبل ان استطيع الاعتذار عنه. وعندئذ سمعت جوزيف يسألها : « اليست فضيحة صارخة أن يكون لها عشاق وهى فى هذا الشطر من حياتها ؟ .. ثم لا تكتفى بذلك، بل تقدم لهم الشراب من قبو السيد !.. انه لا يطيق عار البقاء ساكنا ليرى ذلك كله » ..

ولكنها لم تنتظر لترد عليه ، بل عادت بعد لحظة تحمل قدحا فضيا يحفه الحبب ، اثنيت على محتوياته الثناء الحميد فى شهية وحمية ! .. وبعد ذلك زودتنى بالبقية الباقية من قصة هيثكليف .. فقد كانت نهايته « غريبة » على حد تعبيرها ..

. . . .

قالت مسز دين :

استدعيت الى « مرتفعات ويذرنج » بعد أسبوعين من رحيلك عنا ، فأطعت مسرورة من أجل كاثرين .. الا أن أول حديث تبادلته معها ، أحزننى وأكربنى ، اذ وجدتها قد تغيرت كثيرا منذ فراقنا .. ولم يوضح لى مستر هيثكليف الأسباب التى حدت به الى تغيير رأيه بشأن حضورى الى هنا .. فلم يقل لى الا انه فى حاجة الى ، وانه تعب من رؤية كاثرين ، واننى يجب أن أتخذ من البهو الصغير حجرة لجلوسى ، وآخذها معى .. ويكفيه أن يضطر الى رؤيتها مرة أو مرتين كل يوم .. وكانت تبدو مسرورة للنظام الجديد ، كما أننى من جانبى توليت تدريجيا تهريب عدد كبير من الكتب وغيرها من الأشياء التى كانت تتسلى بها فى « الجرانج » ، وأخذت أمنى النفس بالعيش فى راحة محتملة .. ولكن هذا الوهم لم يدم طويلا .. فبعد ان كانت كاثرين راضية ، مالبثت بعد فترة قصيرة ان غدت سريعة الغضب شديدة القلق لا يقر لها قرار .. فقد كانت أولا ، ممنوعة من الخروج من الحديقة ، فكانت شديدة السخط على نحو محزن ، من بقائها حبيسة فى حدودها الضيقة بينما الربيع يدنو حثيثا .. ومن ناحية أخرى ، فان انشغالى بمهامى المنزلية ، كان كثيرا مايرغمنى على تركها ، فكانت تشكو ماتعانيه من الوحدة .. كانت تفضل الشجار مع جوزيف فى المطبخ ، على بقائها فى عزلتها الهادئة ! .. وكنت لا أعبأ بمناوشاتهما ، ولكن هيرتون كان كثيرا ما يضطر الى الالتجاء الى المطبخ أيضا ، عند ما يريد السيد أن ينفرد بنفسه فى حجرة الجلوس .. ومع انها كانت ، فى بادىء الأمر ، اما أن تترك المطبخ عند اقترابه ، أو تساعدنى فى مشاغلى فى هدوء ، متجاهلة رؤيته

ومتجنبة مخاطبته ـ ومع انه كان دائما شديد العبوس والصمت بقدر ما يسعه ـ فانها لم تلبث ، بعد فترة من الزمن ، أن غيرت مسلكها وأصبحت تعجز عن أن تتركه وشأنه .. فكانت تتحدث عنه ، وتعلق على غبائه وكسله ، وتفضى بدهشتها وعجبها من احتماله تلك الحياة التى يحياها ، وكيف يستطيع الجلوس أمسية طويلة يحملق فى نار المدفأة ويهوم من النعاس ! .. وقد قالت مرة :

ـ انه أشبه بالكلب ، أليس كذلك يا ايلين ؟ .. أو بحصان عربة الخضر ؟.. انه يقوم بعمله ، ويأكل طعامه ، وينام نوما طويلا ! .. لابد أن يكون عقله خاويا موحشا ! .. هل تحلم قط يا هيرتون ؟ .. واذا كنت تحلم فى نومك ، فعن أى شىء يجرى حلمك ؟ .. آه ! .. ولكنك لا تستطيع أن تخاطبنى !

ثم نظرت اليه ، ولكنه لم يفتح فمه أو ينظر ثانية .. فاستطردت تقول :

ـ ربما كان يحلم الآن ! .. فقد تقوست كتفه فجأة ، كما تفعل كلبتنا « جونو » ! .. اسأليه يا ايلين !

فقلت :

ـ ان مستر هيرتون سوف يسأل السيد أن يبعث بك الى حجرتك فورا اذا لم تحسنى الأدب !

فاننى لم أره يقوس كتفه فقط ، بل رأيته يشد قبضة يده ، كأنه يجد به ميلا الى استخدامها !

وفى مناسبة أخرى صاحت تقول :

ـ اننى أعرف لماذا لايتكلم هيرتون قط عند ما أكون فى

المطبخ .. انه يخشى أن اضحك عليه ! .. ما رأيك يا ايلين؟ لقد حدث مرة ان بدأ يعلم نفسه القراءة ، ولأننى ضحكت منه ، أحرق الكتب وتخلى عن مشروعه .. ألم يكن احمق فى ذلك ؟

فقلت لها :

ــ أولم تكونى أنت شقية شريرة ؟ .. أجيبى على سؤالى هذا !

ــ ربما كنت كذلك .. ولكنى لم أتوقع أن يكون على هذا الغباء .. اسمع ياهيرتون ، لو أعطيتك كتابا الآن ، فهل تأخذه ؟ .. سوف أحاول ..

ثم تناولت كتابا كانت تطالع فيه فوضعته فوق يده ، ولكنه قذف به بعيدا وغمغم يقول انها اذا لم تتخل عن عبثها فسوف يدق عنقها !

ولكنها قالت :

ــ حسنا .. سوف أضعه هنا ، فى درج المائدة .. أما أنا فسأذهب لأنام ..

ثم همست تطلب منى أن أرقبه لأرى ان كان يقرب الكتاب، وغادرت الحجرة .. ولكنه لم يرض أن يدنو منه، فلما انبأتها بذلك فى الصباح ، انتابها كرب عظيم .. ورأيت انها حزينة لاصراره على عبوسه وكسله .. كان ضميرها يؤنبها اذ جعلته يفزع من مجرد التفكير فى اصلاح أمره ، وكان لفعالها الحمقاء أثرها الحاسم فى ذلك .. ولكن ذكاءها كان يعمل ويكد فى علاج ما أفسدته .. كنت كلما اشتغلت بكى الثياب ، أو تابعت غيره من المهام المنزلية التى لاتحتاج للمشى والتنقل ،

والتى لايمكننى القيام بها فى البهو ، رأيتها تعمد الى كتاب من كتبها البهيجة ، وتروح تقرأ لى فيـه بصـوت عال .. وكانت ، عند ما يكون هيرتون هناك ، تقف عادة عنـد جزء مشوق من الكتاب ، ثم تتركه موضـوعا فوق المنضـدة أو غيرها .. فعلت ذلك وكررته مرارا ، ولكنه كان أشد عنادا من البغل ، وبدلا من أن يلتقط الطعم الذى ألقته له ، كان فى الليالى الممطرة ينصرف الى التدخين مع جوزيف ، فيجلس كل منهما الى أحد جانبى المدفأة ، أشبه بالانسان الآلى !.. وكان الأكبر سعيـدا بصممه الذى يجعله لا يفهم شيئا من الهراء الشنيع الذى تقوله كاثرين، كما كان يطيب له أن يسمى مطالعتها وحديثها ، بينما كان الأصغر يبذل قصارى جهده فى التظاهر بعدم الاكتراث .. أما فى الليالى الصحو ، الجميلة فكان هيرتون يخرج الى الصيد ، وتظل كاثرين تتنهدوتتثاءب وتلح على فى أن اتحدث اليها ، ثم تنطلق الى صحن الدار أو الحديقة ، فى اللحظة التى أهم فيها بالكلام .. وكان آخـر ما لجأت اليه ، أن راحت تبكى وتقول أنها سئمت العيش ، وأن حياتها هباء فى هباء ..

وكان مستر هيثكليف يزداد يوما بعديوم عزوفا عن معاشرة أحد ، حتى أبعد هيرتون نهائيا عن حجرة الجلوس .. وعلى اثر حادث أصـابه فى بداية مارس ، أصـبح الفتى قطعـة ثابتة فى المطبخ ، لأيام عديدة .. كانت بندقيته قد انفجرت بينما كان يجوب التلال وحده ، فمزقت شظية منها ذراعه وفقد قدرا عظيما من دمائه قبل أن يستطيع الوصـول الى المنزل .. وكانت نتيجة ذلك أن قضى عليه ، رغم أنفه ، بأن يخلد الى الهدوء والسكون ، بجوار المدفأة ، حتى استعـاد قواه .. وكان مما يوانق كاثرين ويرضيها أن تجده دائمـا هناك ، حتى لقد ازدادت كراهية لحجرتها فى الطابق العلوى

اكثر منها فى اى وقت مضى ، وكانت ترغمنى على ان أجد عملا فى المطبخ ، حتى ترافقنى اليه ..

وفى يوم الاثنين ـ الموافق لعيد الفصح ـ ذهب جوزيف الى سوق (جيمرتون) ببعض الماشية .. وكنت مشغولة فى المساء بترتيب بعض المفارش فى المطبخ ، وقد جلس ايرنشو واجما مهموما كعادته ، فى ركن المدفأة ، بينما مضت سيدتى الصغيرة تتلهى برسم الصور على زجاج النافذة ، أو تستبدل ملهاتها هذه بالغناء الخافت ، أو الصيحات الهامسة ، وباستراق النظر فى سخط وتبرم نحو ابن خالها الذى كان منصرفا الى التدخين فى ثبات ، وهو لايحول أنظاره عن الموقد !

فلما أبديت لها اننى لا أستطيع أن أسمح لها بالاستمرار فى الوقوف امام النافذة وحجب الضوء عنى ، انتقلت الى جوار المدفأة .. ولم أكن ألقى بالا الى أفعالها قبل ذلك ، ولكنى سمعتها وقتئذ تبدأ قائلة :

ـ لقد تبينت ياهيرتون اننى أريد .. انه يسرنى .. اننى أود كثيرا أن تكون ابن خالى الآن، لولا انك غدوت دائم التجهم لى والخشونة معى ..

فلم يجبها هيرتون بكلمة ، فاستطردت تقول فى الحاح :

ـ هيرتون .. هيرتون .. هيرتون .. هل تسمعنى ؟

فزمجر فى فظاظة لاتبشر بالخير :

ـ أغربى عن وجهى !

فقربت يدها فى حذر وجذبت الغليون من فمه ، وهى تقول :

ـ دعنى آخذ هذا الغليون ..

وقبل أن يتسع له الوقت ليحاول استعادته ، كان الغليون قد تحطم وألقى به وسط النيران المتأججة .. فانطلق يسب ويلعن ، ثم أخرج غليونا آخر ، فصاحت :

ـ انتظر ! .. يجب أن تصغى الى اولا ، ولن استطيع الكلام وهذه السحب من الدخان تطفو فى وجهى !

فصرخ فى وجهها ، فى ضراوة وشراسة :

ـ هل لك أن تذهبى الى الشيطان ، وتدعينى وشأنى ؟

ولكنها مضت فى الحاحها ، فقالت :

ـ كلا .. لن أذهب الى الشيطان ، ولن أدعك وشأنك .. اننى لا أدرى ما الذى يمكن ان افعله لأجعلك تتحدث معى .. فأنت قد عقدت العزم على ألا تفهمنى .. اننى عند ما أنعتك بالبلاهة ، فلست اعنى شيئا البتة .. لست أعنى اننى احتقرك وأزدريك .. فهدىء من روعك ، واولنى شيئا من الاهتمام يا هيرتون ! .. انك ابن خالى ، ويجب أن تعترف بوجودى ..

ـ بل لن يكون لى شأن بك ، ولا بكبريائك الدنيئة ، وأفاعيلك الهازئة اللعينة ! .. انه لأولى لى أن أذهب الى الجحيم ، روحا وجسدا ، قبل أن اتبعك بنظرة جانبية مرة أخرى !.. اغربى عن وجهى الآن .. حالا !

فعبست كاثرين ، وانسحبت الى مقعد النافذة وهى تعض على شفتها ، وتترنم بنغمة غريبة تحاول أن تخفى وراءها رغبة متزايدة نحو البكاء ..

فتدخلت بينهما قائلة :

ـ يجب أن تكون صديقا لابنة عمتك يا مستر هيرتون ، مادامت قد ندمت على شقاوتها معك .. انك سوف تلقى من صداقتها خيرا عظيما .. سوف تصبح رجلا آخر لو اتخذتها لك رفيقا ..

فصاح :

ـ رفيقا ؟ .. بينما هى تمقتنى ولا ترانى أهلا لأن أمسح حذاءها ؟ .. كلا .. كلا .. لن أرضى بالازدراء فى سبيل كسب رضاها ، ولو جعلتنى صحبتها ملكا متوجا !

فلم تقو كاثرين على اخفاء حزنها ، وانبعثت تبكى وهى تقول :

ـ لست أنا التى أكرهك ، بل أنت الذى تكرهنى ! .. انك تمقتنى مثلما يمقتنى مستر هيثكليف ، بل أكثر !

ـ أنت كاذبة لعينة ! .. لماذا ، اذن ، كان يثور ضدى غاضبا ، أكثر من مائة مرة ، عند ما كنت أنحاز لك وادافع عنك ؟ .. وذلك بينما كنت تسخرين منى وتحتقريننى و .. عودى الى مضايقتك لى ، وسوف أذهب اليه وأقول انك ازعجتنى حتى أخرجتنى من المطبخ !

فقالت كاثرين وهى تجفف عينيها :

ـ لم أكن أعرف انك دافعت عنى .. ثم اننى كنت تعسة شقية أشعر بالمرارة من الناس جميعا . ولكنى الآن اشكرك ، وأرجو أن تصفح عنى . فما الذى يمكن ان اصنعه غير ذلك ؟

ثم عادت الى المدفأة ، ومدت اليه يدها فى اخلاص ..

أما هو فقد احتقن وجهه ، وازداد تجهما ، حتى أصبح كسحابة رعدية توشك أن تنفجر ، وظل يشدد الضغط على قبضتيه وقد تعلقت أنظاره بالأرض .. ولا بد أن تكون كاثرين قد تبينت ، بغريزتها ، ان مادفعه الى هذا المسلك الفظ لايعدو أن يكون صلابة فى الاعتزاز بالنفس والعناد ، لا كرها ولا بغضا .. لأنها بعد أن لبثت مترددة برهة ، انحنت فوقه وطبعت على وجنته قبلة رقيقة !.. وكأنما حسبت الخبيثة الصغيرة اننى لم أرها ، اذ عادت الى مكانها السابق بجوار النافذة ، فى رصانة وبراءة ! .. ولكننى هززت رأسى مؤنبة ، فتورد وجهها وهمست تقول لى :

ــ حسنا .. ماذا كان ينبغى أن أفعل يا ايلين ؟ .. لقد رفض ان يصافحنى ، ورفض أن ينظر الى ، وكان لابد لى من ان أريه ، بطريقة ما ، اننى أميل اليه ، واننى أريد ان نكون صديقين !

ولست أدرى ان كانت القبلة قد اقنعت هيرتون أخيرا !.. ولكنه حرص على اخفاء وجهه ، لحظة طويلة ، حتى لا يراه أحد ! .. فلما رفعه ، كان يبدو فى حيرة يرثى لها ، لايدرى الى أين يوجه أنظاره !

وانشغلت كاثرين فى تغليف كتاب أنيق بورق ابيض نظيف .. وبعد أن ربطته بقطعة من الشريط ، وكتبت عليه « الى مستر هيرتون ايرنشو » ، رغبت الى فى أن أكون سفيرة لها ، وأن احمل الهدية الى المرسلة اليه .. وقالت :

ــ واخبريه يا ايلين ، انه اذا قبله فسوف أحضر وأعلمه كيف يقرأه قراءة صحيحة .. اما اذا رفض قبوله ، فسوف أصعد الى حجرتى ولن أضايقه بعد ذلك قط !

فحملت الكتاب ، وأعدت الرسالة على مسامعه ، بينما

كانت مخدومتي ترقبني في لهفة وقلق .. الا أن هيرتون لم يفتح أصابعه المنقبضة ، ولذلك وضعت الكتاب فوق ركبته .. ولكنه لم يقذف به أرضا كذلك ! .. فعدت الى عملي ، بينما توسدت كاثرين ذراعيها فوق المائدة ، حتى سمعت حفيف ورق الغلاف وهو ينزع في رفق ، وعندئذ تسللت الى حيث كان ابن خالها ، فجلست الى جانبه في هدوء .. فرأيته يرتعد ، ووجهه يضطرم نارا ، وقد فارقته خشونته وفظاظته الى غير رجعة .. ولكنه لم يستطع ، في بادىءالأمر ، أن يستجمع شجاعته ، وينطق بحرف واحد ردا على نظراتها المتسائلة ، وغمغمتها المتوسلة ، وهي تقول له :

— قل انك صفحت عني يا هيرتون .. قلها ! .. انك تضفي على سعادة بالغة لو قلت هذه الكلمة الصغيرة ..

فانبعثت منه تمتمة غير مفهومة .. ومضت كاثرين تضيف في تساؤل :

— وهل ستصبح صديقي ؟

— كلا .. فسوف تخجلين مني كل يوم من أيام حياتك ، وكلما ازداد شعورك بالخجل والعار ، ازددت معرفة بي ، وهذا أمر لا أطيق احتماله ..

فعلت وجهها ابتسامة أحلى من العسل ، وزحفت الى جانبه ملتصقة به وهي تقول :

— اذن فلن تكون صديقي ؟

ولم أعد أسمع كلاما مفهوما بعد ذلك ! .. فلما تلفت ناحيتهما ثانية ، رأيت وجهين منحنيين معا فوق احدى صفحات الهدية المقبولة ، يشع منهما الضياء والبهاء بحيث

لم يعد لدى شك فى أن المعاهدة قد أبرمت بين الطرفين ، وان العدوين قد انقلبا حليفين متحابين !

كان الكتاب الذى يدرسانه مليئا بالصور الثمينة .. وكانت هذه وجلستهما معاقد سحرتهما بحيث ظلا بلا حراك حتى عاد جوزيف الى المنزل .. ياللرجل المسكين ! .. لقد وقف ذاهلا مشدوها ، وهو يرى كاثرين تجلس على أريكة واحدة مع هيرتون ايرنشو ، وتسند يدها الى كتفه !.. كان حائراً كيف يطيق فتاه المدلل الاقتراب منها الى هذا الحد ! .. وكان أثر ذلك كله فى نفسه من العمق بحيث لم يبد أى تعليق ليلتئذ .. وانما وجد شعوره متنفسا فى تلك التنهدات العميقة التى راح يطلقها وهو ينشر كتابه المقدس الكبير فوق المائدة ، ويضع فوقه أوراقا مالية قذرة كان يخرجها من حافظته ، وهى ثمرة الصفقات التى قام بها يومئذ .. وأخيرا نادى اليه هيرتون ، قائلا :

ـ خذ هذه الى السيد ، ياغلام ، وابق معه هناك .. اننى سوف أصعد الى حجرتى ! .. وهذا الجحر لم يعد صالحا أو لائقا بنا ، ولا بد لنا من أن نهجره ونبحث عن مكان غيره !

فقلت :

ـ تعالى يا كاثرين .. فلا بد لنا من أن « نهجره » نحن كذلك .. لقد انتهيت من الكى ، فهل أنت على استعداد للانصراف ؟

فنهضت على كره وهى تقول :

ـ الساعة لم تبلغ الثامنة بعد ! .. سوف أترك هذا الكتاب فوق رف المدفأة يا هيرتون ، وسأحضر غيره فى الصباح ..

فقال جوزيف :

ـ أى كتاب تتركينه هنا سوف آخذه الى حجرة الجلوس، وستكون معجزة لو وجدته ثانية .. فافعلى مايحلو لك اذن !

فأنذرته كاثرين بأن مكتبته سوف تدفع الثمن غاليا اذا مافقد شيء من كتبها ، ثم انطلقت ترقى الدرج مترنمة بلحن جميل ، بعد أن منحت هيرتون ابتسامة وضاءة وهى تمر به ..

ونمت الألفة التى نشأت بينهما على هذا النحو ، نموا سريعا ، وان صادفتها لحظات من الفتور الوقتى .. فلم يكن ايرنشو لينال الثقافة والتهذيب بكلمة أو رغبة .. كما أن سيدتى الصغيرة لم تكن فيلسوفة ، أو مثال الصبر والحلم ! .. ولكن تفكيرهما كان يتجه الى هدف واحد : فأحدهما يحب ، ويود أن يضفى تقديره على من يحب ، والثانى يحب، ويشتهى أن يكون موضع تقدير محبوبه ـ فتكاتفا فى النهاية على بلوغه ..

وهكذا ترى يامستر لوكوود أن استمالة قلب كاثرين كانت امرا ميسورا .. ولكنى مسرورة الآن لأنك لم تحاول ذلك .. ان أقصى آمالى ان أرى هذين الاثنين زوجين .. ولن احسد احدا ليلة زفافهما ، فلن تكون فى انجلترا كلها امرأة أعظم سعادة منى !

الفصل الثالث والثلاثون

كان ايرنشو ـ غداة ذلك اليوم ـ لا يزال غير قادر على متابعة أعماله العادية ، ومن ثمت كان باقيا فى المنزل ولن

يبرحه .. وسرعان ماتبينت ان حجز وديعتى بجانبى ، كما كنت أفعل فيما مضى ، سوف يكون أمرا غير عملى ، فقد نزلت قبلى ، وأسرعت الى الحديقة حيث كانت قد رأت ابن خالها يؤدى عملا بسيطا هناك .. فلما ذهبت لأطلب اليهما الدخول لتناول طعام الافطار ، وجدت أنها قد أغرته بتنظيف قطعة كبيرة من الأرض من أشجار العنب البناتى وعنب الديب ، وكانا وقتئذ منهمكين معا فى غرس بعض النباتات التى استجلبت شتلاتها من « الجرانج » ..

وتملكنى الفزع من ذلك الدمار الذى أصاب الحديقة فى نصف ساعة ، لا أكثر .. فقد كانت اشجار العنب البناتى الأسود قرة عين جوزيف ، فاذا كاثرين تركز اختيارها لحوض الزهور التى غرستها ، وسط هذه الأشجار ..

فصحت مرتاعة :

ــ ويلاه !.. سوف يأخذ جوزيف السيد ليرى هذا ، عندما يكتشفه ! .. ثم أى عذر يمكنكما أن تبدياه لاطلاق أيديكما فى الحديقة بمثل هذه الجرأة ؟ .. سوف نرى انفجارا رائعا بسبب ذلك ، وستريان بنفسيكما !.. واننى لأعجب يامستر هيرتون ، كيف لم تبق لديك ذرة من العقل حتى تقوم بهذا الانقلاب بناء على طلبها !

فأجاب ايرنشو وقد بدا حائرا :

ــ لقد نسيت انها أشجار جوزيف ، ولكنى سأخبره بأننى الذى اقتلعتها ..

وكنا نتناول طعامنا دائما برفقة مستر هيثكليف .. فكنت أقوم بدور سيدة الدار ، فى تقديم الشاى وتوزيع الطعام ، ولذلك كان وجودى على المائدة ضروريا ، لا غنى

عنه .. وكانت كاثرين عادة تجلس الى جانبى، ولكنها يومئذ تسللت قريبا من هيرتون ، وما لبثت ان رأيتها لا تتستر فى اظهار صداقتها أكثر منها فى اظهار العداء !

وكنت قد همست لها ، أثناء دخولنا الحجرة معا :

— أرجو ألا تكثرى من الحديث واللفتات مع ابن خالك ، فان ذلك سوف يغضب مستر هيثكليف حتما، ويجعله يثور فى وجهيكما معا ..

فأجابتنى : « لن أفعل شيئا من ذلك ! »

ولكنها ، فى اللحظة التالية ، كانت تلتصق به ، وبدأت تعابثه وتلقى بزهور الاقحوان فى طبق الثريد أمامه ..

ولم يجرؤ وقتئذ على أن يخاطبها بكلمة .. بل كاد لايجرؤ على النظر اليها .. ومع ذلك ظلت ممعنة فى عبثها حتى كادت تستثير الضحك منه مرة أو اثنتين .. فعبست فى وجهها ، وعندئذ ألقت على السيد نظرة سريعة لترى ان كان يلحظها .. ولكنه كان مشغول الفكر بأشياء أخرى غير رفقاء الطعام، كما بدا جليا فى محياه .. فلزمت كاثرين الرصانة لحظة ، وهى تتفرس فيه بنظرات ثاقبة ، وهيبة عميقة .. وما لبثت أن عادت الى مجونها .. وأخيرا أفلتت من هيرتون ضحكة مكتومة .. فأجفل مستر هيثكليف بغتة ، وراح يتصفح وجوهنا بنظرة سريعة .. وقابلت كاثرين نظراته بنظرتها العادية المليئة بالسخط ، بل بالتحدى ، التى كان يكرهها منها .. فصاح بها :

— من حسن حظك انك بعيدة عن متناول يدى . أى شيطان يتملكك حتى تحملقى فى وجهى دائما بهاتين العينين الجهنميتين ؟ .. اخفضى عينيك ! .. واياك أن تذكرينى بوجودك مرة

أخرى .. لقد ظننتك برئت من الضحك !

ففمغم هيرتون :

ـ لقد كنت أنا ..

فسأله السيد :

ـ ماذا تقول ؟

فأرخى هيرتون أنظاره الى طعامه ، ولم يكرر اعترافه ثانية .. فظل مستر هيثكليف يرمقه بأنظاره لحظة ، ثم عاد الى متابعة افطاره صامتا، والى استئناف الامعان فى التفكير، بعد أن قطعته هذه الواقعة .. وكنا قد أوشكنا على الفراغ من الطعام، وقد تعقل الفتى والفتاة فجلسا هادئين متباعدين، حتى توقعت أن هذه الجلسة ان تشوبها شائبة بعد ذلك ، عند ما ظهر جوزيف فى الباب ، وقد بدا فى شفته المرتعشة، وعينيه الثائرتين ، ان العدوان الذى وقع على خمائله الثمينة قد كشف أمره .. ولا بد انه قد رأى كاثى وابن خالها واقفين عند تلك البقعة قبل أن يذهب لفحصها ، لأنه كان يتكلم وفكاه يصطكان كفكى بقرة تجتر طعامها ، فيجعلان من العسير فهم مايقوله عند ما بدأ :

ـ يجب أن آخذ أجرى ، ويجب أن ارحل من هنا ! .. لقد كنت اود ان اموت فى المكان الذى خدمته ستين عاما ، وظننت أن بوسعي ان آخذ كتبى وكل ما لدى من أشياء أخرى ، الى العلية الصغيرة ، فأترك لهما المطبخ يمرحان فيه كما يريدان ، وانشد الهدوء والسكينة فى مكان آخر .. كان من العسير أن أتخلى عن مدفأتى وجلستى بجانبها ، ولكنى ظننت اننى أستطيع ان افعل ذلك .. اما الآن فقد أخذت منى حديقتى ، وهذا شىء لا أستطيع أن احتمله ايها السيد

.. اننى أقولها لك من كل قلبى.. انك قد تحنى رأسك تحت النير ، اما انا فلست معتادا عليه ، ورجل عجوزمثلى لايعتاد سريعا على النظم الحديثة ! .. انى أفضل أن أكسب لقمتى وحسائى من فأس ومطرقة أشتغل بهما على قارعةالطريق !

فقاطعه هيثكليف قائلا :

ـ مهلا .. مهلا أيها الغبى !.. أوقف هذا الطوفان حالا ! .. ما الذى يثير شجونك ؟ .. ولكننى لن أتدخل فى أى شجار بينك وبين نللى ، فلو قذفت بك الى داخل الموقد لما اكترثت !

ـ انها ليست نللى ! .. فما كنت لأشكو من نللى ، ولو انها أصبحت الآن خبيثة هى الأخرى .. شكرا لله ! .. فهى لا ترضى بأن تسلب أحدا روحه ! .. فلم تكن قط رقيقة الشعور مثلما هى الآن ، ولكن ماذا تستطيع أن تفعل وسط الشرور التى تحيط بها ! .. انها « ملكتك » الخسيسة الشريرة التى سحرت فتانا بعينيها الجريئتين ، ووسائلها الدنيئة ، حتى جعلته .. لا .. ان قلبى يتمزق !.. جعلته ينسى كل مافعلته له ، وما صنعته به ، فيذهب ليزيل أكبر أشجار العنب البناتى فى الحديقة !

ثم انخرط فى البكاء كالنساء ، وقد غلبه احساسه بمرارة الاهانة التى لحقته ، وجحود ايرنشو والحالة الخطيرة التى بلغها !

فقال مستر هيثكليف :

ـ هل ذلك الأبله ثمل ؟ .. أهو أنت الذى يشكو منه يا هيرتون ؟

فأجاب الفتى :

ـ لقد نزعت شجرتين او ثلاثا ، ولكنى سوف اعيدهما ثانية ..

فسأله السيد :

ـ ولماذا نزعتها ؟

عندئذ رأت كاثرين من الحكمة أن تمد لسانها ! .. فصاحت :

ـ لقد أردنا أن نزرع بعض الزهور هناك .. وانا المسئولة الوحيدة عن ذلك ، لأننى طلبت اليه أن يفعله ..

فقال حموها فى دهشة بالغة :

ـ من الذى أذنك ، بحق الشيطان ، أن تمسى شيئا فى هذا المكان ؟

ثم تحول الى هيرتون ، وأردف :

ـ ومن الذى أمرك بأن تطيعها ؟

فلم ينبس الأخير بكلمة، وتولت ابنة عمته الاجابة فقالت :

ـ ماينبغى لك أن تحقد علينا من أجل بضع ياردات، من الأرض أجد فيها زينة لى، بعد ان استوليت على كل أرضى !

ـ أرضك ؟.. متى كانت لك أرض ايتها الحقيرة الوقحة ؟

فاستطردت تقول وهى تقابل نظراته النارية فى ثبات وتقضم قطعة من الكعك بقيت من افطارها : « ونقودي ! »

فصاح بها :

ــ اخرسى ! .. اذهبى من هنا ..

فتابعت التعسة الطائشة كلامها :

ــ وأرض هيرتون وماله ! .. لقد أصبحت وهيرتون صديقين ، وسوف اخبره بكل شىء عنك !

وجمد السيد فى مكانه مشدوها لحظة ، وقد امتقع وجهه ، وما لبث أن نهض من مكانه ، دون أن يرخى أنظاره عنها طيلة هذا الوقت ، وبدت فى وجهه لمحة من الحقد المميت .. ولكنها عاجلته قائلة :

ــ اذا ضربتنى ، فسوف يضربك هيرتون !.. وخير لك أن تعود الى مجلسك أذن ! ..

فانفجر هيثكليف كالرعد القاصف :

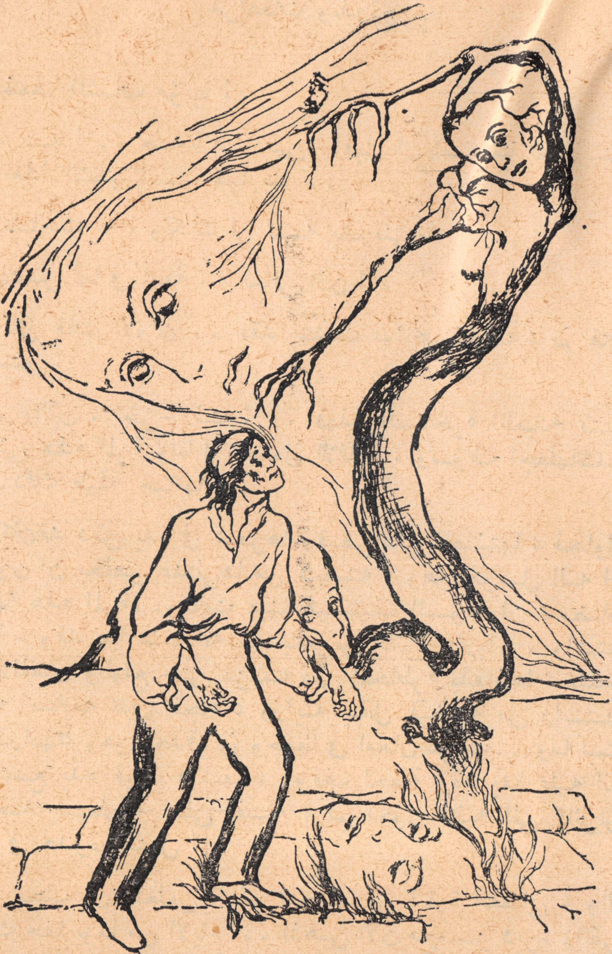
ــ اذا لم يخرجك هيرتون من الحجرة الآن فسوف اضربه حتى اقضى عليه .. أنت ايتها الساحرة اللعينة !.. اتجرؤين على التفاخر باثارته ضدى ؟ .. أخرجها من هنا .. الا تسمع ؟ .. ألقها فى المطبخ ! .. اننى سوف أقتلها ، يا ايلين دين ، اذا تركتها تقع تحت نظرى ثانية !

فحاول هيرتون اقناعها بالخروج همسا ، ولكن هيثكليف صاح به فى وحشية :

ــ جرها الى الخارج ! .. اسحبها على الأرض ! .. هل أنت واقف لتكلمها ؟

ثم دنا منها لينفذ أمره بنفسه .. فقالت كاثرين :

ــ انه لن يطيعك بعد الآن، أيها الرجل الشرير !.. وسوف يمقتك عاجلا مثلما أمقتك !



« .. أراها فى كل سحابة ، وفى كل شجرة .. أراها تملأ الهواء بالليل ،
وألمحها فى كل شيء بالنهار .. تحيط بى صورتها أينما كنت ... »

(صفحة ٥٠٥)

فغمغم الشاب مؤنبا :

— صه ! .. صه ! .. أننى لا أقبل أن اسمعك تخاطبينه على هذا النحو ! .. هيا بنا ..

فصاحت به : ولكنك لن تدعه يضربنى ؟

فهمس لها فى لهفة : « تعالى اذن ! »

ولكن فات الأوان .. فقد أمسك بها هيثكليف ، ثم قال لايرنشو :

— والآن ، أخرج أنت ! .. فهذه الساحرة اللعينة قد أثارتنى هذه المرة وانا لا احتمل الاثارة ، وسوف اجعلها تندم على ذلك طيلة حياتها ..

وكان قد دس يده فى شعرها وقبض على ناصيتها ، فحاول هيرتون أن يخلص غدائرها من قبضته ، وهو يتوسل اليه الا يؤذيها هذه المرة .. وكانت عينا هيثكليف السوداوان تومضان شررا ، وقد بدا عليه انه يهم بتمزيق كاثرين اربا .. واشتد بى الانفعال والهلع حتى عزمت على المخاطرة بانقاذها ، عندما رأيت أصابعه تلين فجأة ، ورأيته ينقل قبضته من رأسها الى ذراعها، وهو يحدق فى وجهها فى امعان غريب .. وما لبث أن وضع يده فوق عينيها ، ووقف لحظة وقد بدا عليه أنه يستعيد سيطرته على نفسه ، ثم تحول ثانية الى كاثرين قائلا فى هدوء مفتعل :

— يجب أن تتعلمى كيف تتحاشين اثارة انفعالى ، والا قتلتك حقا يوما من الايام !.. اذهبى الآن مع مسز دين، وابقى معها ، واقصرى قحتك وسلاطة لسانك على اذنيها ! .. اما هيرتون ايرنشو، فلو رأيته يصغى اليك ويعمل بوحيك، فسوف

أبعث به ليبحث عن لقمته حيث يستطيع أن يجدها ! .. ان حبك سوف يجعل منه طريدا متسولا .. والآن ، خذيها يا نللى ، واتركونى جميعا .. دعونى ! .. دعونى !

فأخذت سيدتى الصغيرة الى الخارج ، وكانت فرحتها بالخلاص من يده قد غلبت رغبتها فى المقاومة .. وتبعنا الآخر ، وبقى مستر هيثكليف وحده فى الحجرة حتى موعد الغداء .. وكنت قد نصحت لكاثرين أن تتناول غداءها فى الطابق العلوى ، ولكنه ما ان رأى مقعدها خاليا حتى ارسلنى لاستدعائها .. ولم يخاطب أحدا منا بكلمة ، ولم يتناول من الطعام الا قليلا ، ثم انصرف على الأثر ، قائلا انه لن يعود الا فى المساء ..

وقد أقام الصديقان فى حجرة الجلوس أثناء غيبته ، حيث سمعت هيرتون يصد ابنة عمته فى عبوس ، عند ما همت بأن تدلى بأسرار مسلك حميها نحو والد الشاب ، اذ قال لها انه لن يحتمل كلمة للحط من قدر هيثكليف .. فلو كان الشيطان نفسه ، فان ذلك لا يعنى شيئا البتة ! .. وسوف يقف الى جانبه .. وأضاف انه يفضل أن تعاود اهانتها له ، كما اعتادت من قبل ، على ان تتحول بها الى مستر هيثكليف .. فازدادت كاثرين عنادا عند ما سمعت ذلك ، ولكنه وجد الوسيلة الناجعة ليجعلها تمسك لسانها ، بأن سألها كيف يكون شعورها اذا سمعته يقول سوءا عن والدها ؟ .. وعندئذ أدركت كاثرين أن ايرنشو كان يعد كرامة السيد من كرامته هو ، وانه كان متعلقا به بصلات أقوى من أن يستطيع العقل تحطيمها .. كانت تربطه به سلاسل صهرتها العادة وقساها طول العشرة بحيث يكون من القسوة أن تحاول فكاكها .. وقد اظهرت كاثرين ، منذ ذلك الحين ، من طيبة القلب ما جعلها تتجنب كل شكوى أو تذمر ، بل وكل كلمة تنم على كراهيتها لمستر هيثكليف ونفورها منه .. واعترفت لى بعد ذلك بأسفها على

أن حاولت افساد العلاقة بينه وبين هيرتون .. والحق أننى لا أعتقد انها همست بحرف واحد فى مسامع هذا الأخير ضد مضطهدها بعد ذلك ..

فلما انتهى ذلك الخلاف الطفيف بينهما ، ارتدا صديقين ثانية ،وانهمكا بعد ذلك فى مشاغلهما العديدة ،كتلميذ ومعلمته .. وأتيت لأجلس معهما ، بعد أن فرغت من عملى ، فشعرت بالراحة والسكينة عند ما كنت أرقبهما ، بحيث غفلت عن انقضاء الوقت سريعا .. وأنت تعلم ، يا مستر لوكوود ، أنهما كلاهما يعدان طفلين لى الى حد ما .. وقد ظللت طويلا فخورة بأحدهما ، وانى واثقة الآن من ان الآخر سوف ينال من نفسى تلك المنزلة نفسها..ان طبيعته الأمينة المتوثبة الذكية قد نفضت عنها سريعا سحب الجهل والانحطاط التى نشأ فيها ، وكان مديح كاثرين الصادق المخلص خير حافز له على المثابرة.. وكأنما أضفى تألق ذهنه تألقا جديدا على محياه ، واضاف اليه حيوية وثابة ونبلا اصيلا .. حتى كدت لا أتصور انه ذلك المخلوق نفسه الذى رأيته يوم اكتشفت سيدتى الصغيرة فى «مرتفعات ويذرنج » ، بعد رحلتها الى صخور « بنستون كراجز » .. وفيما كانا يعملان ، وأنا أرمقهما فى اعجاب، كان الغسق يقترب فى خطى حثيثة، ويأتى معه بالسيد .. وكان مقدمه علينا بغتة ، وعلى غير انتظار ، اذ دخل من الباب الأمامى ، والقى على ثلاثتنا نظرة شاملة قبل أن نستطيع أن نرفع رؤوسنا وننظر اليه .. فقلت فى نفسى : « حسنا .. ما من منظر أكثر بهجة وأقل ضررا كهذا الذى يشملنا ، ومن العار حقا أن يفكر فى انتهارهما » .. كان وهج النار الأحمر يتألق على الرأسين الجميلتين، ويكشف عن وجهين يفيضان بلهفة الطفولة واهتمامها .. فمع انه فى الثالثة والعشرين ، وهى فى الثامنة عشرة ، الا أن كلا منهما

كان لديه الكثير من الأشياء الجديدة عليه فى الأحاسيس والعلم بحيث لا يكابد أو يظهر تلك الميول المنبعثة عن نضج واع خال من الأوهام ..

ورفعا عيونهما معا لتلتقى بنظرات مستر هيثكليف .. ولعلك لم تلاحظ قط أن عيونهما متشابهة تماما، وأنها نفسها عينا كاثرين ايرنشو.. فليس لكاثرين الحالية أى شبه بها غير ذلك ، الا فى جبهتها العريضة ، وفى تقوس أنفها بما يجعلها تبدو متعجرفة متعالية ، سواء ارادت ذلك أم لم ترده .. أما هيرتون، فان شبهه بعمته أبعد مدى.. شبه اعتاد ان يبدو غريبا دائما .. أما فى تلك اللحظة خاصة فكان مذهلا الى حد بعيد ، لأن حواسه كانت متوفزة، وملكاته العقلية قد نشطت نشاطا غير عادي.. واحسب أن هذا الشبه قدغل يدى مستر هيثكليف وأضعفه !.. فقد سار الى المدفأة فى انفعال واضح ، ثم ما لبث أن سكن وهدأ عند ما نظر الى الفتى .. أو لعل انفعاله قد تغيرت بواعثه ومظاهره ، لأنه كان لا يزال باديا فى محياه بعد .. وتناول الكتاب من يد هيرتون ، والقى نظرة على الصفحة المفتوحة، ثم اعاده اليه دون أن يفوه بأية ملاحظة .. كل ما فعله هو أن أشار الى كاثرين بالانصراف ! .. اما رفيقها فقد تلكأ قليلا قبل أن يمضى فى أثرها ، وكنت على وشك أن أتبعهما ، عندما اشار الى أن ابقى جالسة مكانى ..

وبعد ان تحدث لحظة عن المنظر الذى شهده للتو ، بدأ يقول :

— أنها نهاية تافهة ، اليس كذلك ؟ .. اليست خاتمة سخيفة لكل ما بذلت من جهود عنيفة ؟.. لقد جئت بالروافع والمطارق لأهدم هذين البيتين وأخربهما، ورحت أدرب نفسى لأكون قادرا على العمل مثل هرقل ، حتى اذا ما استعددت

لكل شيء ، واصبح فى يدى ، اذا بالرغبة فى رفع حجر واحد من احد السقفين تتلاشى كأن لم تكن ! .. ان اعدائى القدماء لم يهزمونى .. وقد تكون هذه الآونة هى اللحظة الملائمة لكى أثأر لنفسى من ذريتهم .. وفى وسعى أن افعل ذلك .. بل ما من أحد يستطيع أن يحول دونه .. ولكن أين الفائدة فى ذلك ؟ .. اننى لم اعد ابالى بأن اضرب ضربتى .. وليس فى وسعى أن اجشم نفسى مشقة رفع يدى .. لكم يبدو ذلك كما لو كنت قد ظللت أعمل واكد طول هذا الوقت لكى أقدم عرضا رائعا للشهامة والمروءة ! .. ولكن ذلك أبعد ما يكون عن حالتى .. انما الحقيقة هى اننى فقدت القدرة على الاستمتاع بتدميرهما ، واننى اصبحت أضن بنفسى عن التدمير والتخريب بغير ثمرة ..

ان هناك تبدلا غريبا فى طريقه الى يا نللى .. وانا الآن اجتاز ظله .. لقد فقدت كل اهتمام بحياتى اليومية العادية، بحيث اصبحت لا اكاد اذكر طعامى وشرابى .. ان هذين الاثنين اللذين غادرا الحجرة الآن هما وحدهما اللذان يحتفظان بمظهر مادى محدد أمامى .. وهذا المظهر يسبب لى الما يظل يتزايد حتى يبلغ مبلغ العذاب .. أما هى ، فلست أود أن اتكلم عنها، ولا اريد ان افكر فيها ، ولكنى أتمنى من كل قلبى لو انها كانت مختفية عن انظارى ، فان وجودها لا يثير فى نفسى الا مشاعر تبعث على الجنون .. ولكنه هو ، يحرك مشاعرى على نحو يختلف عن ذلك تماما ، ولو استطعت ـ دون أن أبدو مجنونا ـ لما كنت أراه بعد ذلك قط ..

ولاحت على شفتيه ابتسامة مغتصبة باهتة ، وهو يستطرد قائلا :

ـ وربما ظننتنى مشرفا على الجنون لو حاولت أن اصف

لك آلاف الصور عن ذكريات الماضى وأفكاره التى يوقظها أو يجسدها أمامى .. ولكنى أعلم انك لن تتحدثى بما سوف أقوله لك ، كما ان عقلى طال عليه الأمد فى عزلته وانطوائه على نفسه ، حتى اشتاق أخيرا الى أن يشرك معه غيره ..

« منذ خمس دقائق كان هيرتون أمامى صورة لشبابى تجسدت أمامى ، ولم يكن بالنسبة لى كائنا بشريا ! .. كنت اراه وأحس به بطرق مختلفة ، حتى أصبح من المحال ان ابدأه الكلام بطريقة معقولة !.. فان شبهه المروع بكاثرين (١) بادىء ذى بدء ، يجعله مقترنا بها الى حد مخيف .. ومع ذلك فهذا الذى قد تحسبينه أقوى الأسباب لشل خيالى ، انما هو فى الواقع أقلها شأنا ! .. والا فأى شىء حولى لا يقترن بها ؟ .. وأى شىء حولى لا يذكرنى بها ؟ .. اننى لا أستطيع ان انظر الى أرض هذه الحجرة دون ان ارى ملامحها مصورة فى كل مربع منها ! .. اراها فى كل سحابة ، وفى كل شجرة .. أراها تملأ الهواء بالليل، وألمحها فى كل شىء بالنهار .. تحيط بى صورتها اينما كنت .. ان وجوه الرجال والنساء العاديين ـ بل اساريرى نفسها ـ تهزأ منى وتسخر بى بما تبديه من شبه بها ! .. ان الدنيا بأسرها مجموعة مخيفة من التقارير تثبت انها لا تزال موجودة ، واننى قد فقدتها ! .. حسنا .. لقد كانت صورة هيرتون شبح غرامى الخالد ، ومحاولاتى الضارية المتعلق بحقوقى .. وهوانى ، وكبريائى ، وسعادتى ، وعذابى !

« ولكن من الجنون أن أردد هذه الخواطر على مسامعك.. كل ما فى الأمر انها سوف تجعلك تدركين لماذا كنت لا أرى فى صحبته خيرا ، رغم نفورى من البقاء بمفردى دائما .. بل

(١) يقصد كاثرين رفيقة صباه وأم كاثرين الشابة .

أنها تزيد فى عمق الألم الدائم الذى أكابده ! .. وتساهم فى جعلى غير مكترث لعلاقته بابنة عمته .. فالواقع اننى لم اعد قادرا على ان اوليهما أى اهتمام .. »

ــ ولكن ما الذى تعنيه بأن تغيرا ما سوف يحل بك يا مستر هيثكليف ؟

قلت ذلك وقد اقلقتنى حالته ، رغم انه لم يكن فيما أرى معرضا لخطر الجنون أو الموت، كان فى عنفوان قوته وصحته .. أما عن حالته العقلية ، فانه كان منذ طفولته يجد متعته فى الاستغراق فى الافكار السوداء،والتعلق بأوهام عجيبة!.. وربما كان مصابا بذلك النوع من الجنون الذى يتركز فى شىء واحد..فى موضوع معبودته الراحلة !..ولكن قواه العقلية ، فى غير ذلك من الأمور جميعا، لم تكن تقل سلامة عن قواى..

فأجاب :

ــ اننى لن اعرفه الا عند مقدمه .. كل ما هنالك اننى أحس به فى غموض ..

ــ ألا تحس بأعراض المرض ؟

ــ كلا يا نللى ..ليس بى شىء من ذلك ..

ــ الا تكون ، اذن ، خائفا من الموت ؟

ــ خائفا ؟ .. كلا .. فما بى خوف من الموت ، ولا أنا أتوقعه ، ولا أرجوه وأتمناه .. ولماذا ينبغى ان تساورنى هذه المخاوف ؟ .. أننى مع تكوينى القوى ، ونظام معيشتى المعتدل ، وعدم تعرضى للمخاطر فى أعمالى ، كل ذلك ينبغى معه ــ بل يحتمل أن يحدث فعــلا ــ ان أظل فوق سطح الأرض حتى لا تبقى فى رأسى شعرة سوداء ! .. ومع ذلك

فلا أراني قادرا على الاستمرار على هذه الحال .. ان على الآن ان أذكر نفسى بأن أتنفس ، واكاد اذكر قلبي بأن ينبض!.. ان الأمر معي يشبه زمبركا صلبا ثنى الى الخلف.. فلو قمت بأقل عمل لا يدفعنى اليه عزم معين ، فانما أساق الى ذلك سوقا .. ولو انتبهت الى شيء ، حى أو ميت ، لا يقترن عندى بفكرة عامة فانما أفعل ذلك رغم أنفى .. لم تبق لى الا رغبة وحيدة يتلهف كيانى كله وحواسى كلها شوقا الى بلوغها .. وقد ظلت تتوق اليها وتتلهف عليها طويلا ، وفى غير تردد أو احجام ، بحيث أصبحت مقتنعا بأننى سوف أبلغها ، وفى أقرب وقت ، لأنها فغرت فاها ، والتقمت وجودى كله ! .. ان تعجلى وقوعها قد ابتلعنى وأطبق فمه على .. ولا تظنى أن هذا الاعتراف قد أراحنى ، او أزاح ما يثقل كاهلي ، وانما هو تفسير لأشياء أخرى فى مسلكى وتصرفاتى كانت غامضة مبهمة .. آه يا الهى ! .. لقد طال الصراع ، فليته يبلغ نهايته !

وبدأ يذرع الحجرة ذهابا وجيئة ، ويتمتم بأشياء رهيبة غير مفهومة ، حتى ملت الى الاعتقاد ، مثلما قال أن جوزيف قد اعتقده ، بأن الضمير قد أحال قلبه الى جحيم دنيوى ! .. وعجبت كثيرا كيف يمكن أن ينتهى ذلك كله .. فعلى الرغم من انه قلما كشف فى الماضى عن حالته العقلية ، ولو فى نظراته ، فلست أشك فى أن هذه هى طبيعته العادية .. وهو نفسه الذى يؤكدها ، لأنه مامن انسان كان يستطيع أن يتكهن بالحقيقة ، من مظهره العام .. وأنت نفسك ، يامستر لوكوود، لم تدرك شيئا عن حقيقته عند ما رأيته ، وقد كان فى الفترة التى أتحدث عنها لا يختلف فى شىء عما كان وقتئذ، الا انه كان أكثر ولعا بالوحدة ، وأقل كلاما مع الناس .

الفصل الرابع والثلاثون

ظل مستر هيثكليف عدة أيام بعد تلك الأمسية يتجنب لقاءنا فى اوقات الطعام .. على أنه لم يكن يرضى بأن يستبعد هيرتون وكاثى من محضره بصورة ظاهرة .. كان ينفر من الخضوع لمشاعره والاستكانة لأحاسيسه ، فاختار أن يغيب ساعة الطعام .. وكان يبدو أن وجبة واحدة يتناولها فى الأربع والعشرين ساعة كافية لتقيم أوده ..

وبعد أن أوت العائلة كلها الى الفراش ذات ليلة ، سمعته يهبط الدرج، ويغادر البيت من الباب الأمامى .. ولم أسمعه يعود الى الدار ، ثم تبينت فى الصباح أنه لا يزال فى الخارج .. كنا وقتئذ فى شهر ابريل ، وكان الجو صحوا دافئا ، وأشجار التفاح القصيرة عند الجدار الجنوبى مليئة بالأزهار والبراعم .. فلما فرغنا من طعام الافطار، ألحت على كاثرين فى أن أحضر شغلى ومقعدى ، وأجلس تحت اشجار الشربين فى الطرف الأقصى من المنزل، ثم أغرت هيرتون - الذى كان قد شفى تماما من اصابته - بأن يحفر ويسوى حديقتها الصغيرة، التى نقلت الى ذلك الركن على أثر شكوى جوزيف وبسببها .. وكنت أنعم فى مجلسى بعبير زهور الربيع حولى، والزرقة الجميلة الهادئة فوق رأسى ، عند ما رجعت سيدتى الصغيرة - وكانت قد ذهبت لتحضر بعض جذور عنب الديب من خمائلها بالقرب من البوابة ليغرساها حول أحواض الزهور - تحمل القليل منها ، وأخبرتنا أن مستر هيثكليف عاد الى الدار ، ثم أضافت وقد علت الحيرة اساريرها :

- وقد كلمنى !

فسألها هيرتون :

ـ وماذا قال لك ؟

ـ طلب الى أن أبتعد عنه بأسرع مايمكنني ! .. ولكنه كان يبدو مختلفا كل الاختلاف عن مظهره المعتاد بحيث وقفت لحظة أحدق النظر فى وجهه ..

ـ وكيف ؟

ـ انه يكاد يكون مرحا وضاء المحيا .. كلا .. ان ذلك لا يكفى لوصفه .. كان شديد الانفعال ، يطفح وجهه بشرا وسرورا ضاريا ..

فقلت متظاهرة بعدم الاكتراث :

ـ ان النزهات الليلية تسليه كثيرا اذن ..

ولكنى فى الحقيقة كنت أشد منها دهشة ، وتلهفت على التحقق من صدق ماقالته.. فان رؤية السيد مرحا مسرورا ليست من المشاهد العادية التى يراها المرء كل يوم .. وانتحلت عذرا لقيامى ، ثم مضيت الى الداخل .. وكان مستر هيثكليف يقف فى فتحة الباب، شاحب الوجه ، يرتعد بدنه رعدة واضحة .. ولكن من المحقق أن عينيه كانتا تشعان ببريق غريب يفيض سرورا ، ويبدل شكل وجهه تبديلا ..

فقلت :

ـ ألا تريد بعض الطعام لافطارك ؟

وكنت أريد أن اكتشف اين قضى ليلته ، ولكنى لم ارد سؤاله مباشرة ، فأردفت اقول :

ـ لا بد ان تكون جائعا الآن بعد ان ظللت تجول فى الخارج الليل بطوله ..

فأشاح بوجهه وقال فى شيء من الازدراء كأنما حدس محاولتى فى استكناه سبب مرحه وانطلاقه :

ــ كلا .. لست جائعا !

فشعرت بالحيرة والارتباك ، ولم أدر ماذا كانت الفرصة سانحة لألقى عليه قليلا من النصح والارشاد ، فقلت :

ــ لاأظن من الصواب أن تقضى الليل هائما على وجهك فى الخارج ، بدلا من أن تقضيه فى الفراش ، فان ذلك ليس من الحكمة فى شيء ، فى هذا الفصل الشديد الرطوبة .. وفى ظنى انك سوف تصاب ببرد أو حمى ، فان بك شيئا ما الآن !

ــ ليس بى الا ما أطيق احتماله ، وبسرور عظيم ، على أن تتركينى وشأنى .. امضى الى الداخل ، ولا تضايقينى !

فأطعته .. ولاحظت أثناء مرورى بجانبه ان أنفاسه كانت سريعة متلاحقة كأنفاس القطط .. فقلت لنفسى :

ــ نعم .. سوف تصيبه نوبة من المرض .. ولكننى لا أفهم ما الذى كان يفعله ..

وفى ظهر ذلك اليوم ، جلس معنا على مائدة الغداء ، وتلقى من يدى طبقا مليئا بالطعام ، كأنما يريد أن يعوض ما فاته فى صومه الماضى .. ولم يفته أن يشير الى حديثى معه فى الصباح ، فقال :

ــ ليس بى برد أو حمى يا نللى .. وسوف ترين اننى على استعداد لالتهام الطعام الذى قدمته لى !

وتناول شوكته وسكينته ، وهم بأن يبدأ طعامه ، عندما بدا كأنما غاضت شهيته فجأة ، فوضعهما أمامه على المائدة ثانية ، وراح يتطلع نحو النافذة فى لهفة ، وما لبث أن نهض

وانطلق الى الخارج .. ورأيناه يذرع الحديقة ذهابا وجيئة بينما رحنا نتم طعامنا ، وعندئذ قال ايرنشو انه سوف يذهب ويسأله عن سبب عدم رغبته فى الطعام ، فقد ظن اننا كدرناه بطريقة ما ..

فلما رجع صاحت كاثرين تسأله :

ـ حسنا .. هل هو قادم ؟

ـ كلا .. ولكنه ليس جائعا .. وهو يبدو وقد غمره سرور نادر الوقوع حقا .. غير انه ضاق بى ذرعا عند ما خاطبته مرتين ، فطلب الى أن أتركه والحق بك ، وأبدى عجبه كيف يمكننى ان انشد صحبة اى انسان غيرك !

ووضعت طبقه فوق حاجز المدفأة ليظل ساخنا .. وقد عاد الى الحجرة بعد ساعة أو ساعتين عند ما كانت خالية منا .. ولكنه لم يبد أكثر هدوءا وسكينة .. كانت تبدو تحت حاجبيه الأسودين تلك النظرة الغريبة نفسها التى تفيض بهجة وسرورا ، وهى نظرة غريبة شاذة حقا .. ثم ذلك اللون الشاحب نفسه، كأن وجهه قد خلا من الدماء .. كان فمه منفرجا ، وأسنانه بادية للعيان، فى نوع من الابتسام الغريب ! .. وكان بدنه كله يرتجف ، لا كما يرتجف المرء من البرد أو الضعف ، بل كما يرتج وتر مشدود الى أقصى احتماله .. كان مابه هزات قوية، أكثر منها رعدة عادية..

وقلت لنفسى اننى سوف أسأله عما دهاه .. ومن غيرى أخلق بسؤاله ؟ .. فهتفت قائلة :

ـ هل تلقيت أية أنباء سارة يا مستر هيثكليف ، فانك تبدو منتعشا الى حد غير مألوف ؟

ـ ومن أين تأتينى الأنباء السارة ؟.. اننى منتعش بسبب

الجوع ، ولكنى ، فيما يبدو ، لا ينبغى أن آكل شيئا ..

ـ ان طعامك هنا على المدفأة ، فلماذا لا تتناوله ؟

فغمغم فى عجلة :

ـ لست أريده الآن ، وسوف أنتظر حتى العشاء .. ثم اننى ارجوك يانللى للمرة الأخيرة ، أن تنذرى هيرتون والأخرى بأن يبعدا عن طريقى .. اننى لا أريد أن يزعجنى أحد ، واريد ان تكون لى هذه الحجرة وحدى ..

فسألته :

ـ هل من سبب جديد لهذا الابعاد ؟ .. خبرنى لماذا تبدو غريبا الى هذا الحد يامستر هيثكليف ؟ .. وأين كنت فى الليلة الماضية ؟ .. اننى لا ألقى عليك هذه السؤال لمجرد الفضول وحب الاستطلاع ، ولكن ..

فقاطعنى ضاحكا :

ـ بل أنك تلقين هذا السؤال بأشد مايكون الفضول وحب الاستطلاع .. ومع ذلك فسوف أجيب عنه .. لقد كنت فى الليلة الماضية على أعتاب الجحيم ! .. أما اليوم فاننى على مرمى البصر من جنتى ! .. ان عينى مركزتان عليها ، ولا يبعدنى عنها غير ثلاثة أقدام !.. والآن ، خير لك أن تنصرفى ، ولن ترى أو تسمعى شيئا يفزعك ، لو امتنعت عن التجسس والتلصص !

فانصرفت خارجة ، بعد ان نظفت الأرض والمائدة ، وأنا أشد ما اكون حيرة واضطرابا ..

ولم يفارق حجرة الجلوس ثانية بعد ظهر ذلك اليوم ، كما لم يتطفل أحد على وحدته وعزلته .. حتى اذا مابلغت

الساعة الثامنة ، قدرت أن من الأفضل أن احمل اليه عشاءه وشمعة موقدة ، رغم انه لم يدعنى .. فرأيته مستندا الى حافة نافذة مفتوحة ، ولكنه لم يكن ينظر الى الخارج ، بل كان يدير وجهه نحو داخل الحجرة المعتمة .. وكانت النار فى المدفأة قد تحولت الى رماد ، وامتلأت الحجرة بهواء تلك الأمسية التي تحفل سماؤها بالسحب ، ذلك الهواء البارد المشبع بالرطوبة .. وكان الجو ساكنا بحيث لم نكن نميز همسات المياه فى قناة « جيمرثون » فحسب ، بل كنا نسمع قرقرتها وخريرها فوق الحصى وخلال الأحجار الكبيرة التى تعترض سبيلها .. فصحت فى سخط اذ رأيت الموقد موحشا كئيبا ، وبدأت أغلق النوافذ واحدة بعد الأخرى ، حتى بلغت النافذة التى يجلس بجوارها ، فقلت :

– هل يجب أن أغلق هذه أيضا ؟

وكنت ارمى الى ان انبهه حتى ينهض من مكانه ، لأنه لم يكن يريد أن يتحرك قط .. وعندئذ ومض ضوء الشمعة فوق أساريره ..

أواه يامستر لوكوود ! .. اننى لا أستطيع ان أعبر لك عن الانتفاضة الفظيعة التى هزت كيانى هزا من ذلك المنظر الذى وقعت عليه أنظارى فى تلك اللحظة القصيرة !.. هاتان العينان السوداوان العميقتان ! .. وهذه الابتسامة ! .. وذلك الشحوب الذى يشبه صفرة الموتى ! .. انه لم يكن يبدو أمامى مستر هيثكليف ، وانما كان ماردا من الجن !.. وفى غمرة الفزع الذى ألم بى ، تركت الشمعة تميل على الجدار فانطفأت وتركتنى فى الظلام ..

وعندئذ أجاب بصوته المألوف :

– نعم .. أغلقيها .. ولكن حسبك هذا التخبط ! ..

لماذا أمسكت بالشمعة فى وضع افقى ؟ .. أسرعى ، واحضرى غيرها ..

فهرعت خارجة فى فزع أحمق ، وقلت لجوزيف :

ـ ان السيد يريد أن تحمل اليه ضوءا وتشعل النار فى المدفأة ..

فاننى لم أجد الجرأة على الذهاب الى هناك مرة أخرى وقتئذ ..

وحمل جوزيف بعض الجمر فى المجرفة، ومضى الى الداخل .. ولكنه عاد بها على الفور ، وفى يده الأخرى صفحة الطعام ، قائلا ان مستر هيثكليف قام ليذهب الى فراشه ، وانه لا يريد شيئا من الطعام حتى الصباح .. وسمعناه للتو يصعد الدرج ، ولكنه لم يذهب الى حجرته العادية ، بل تحول نحو تلك الحجرة الأخرى التى تحوى الفراش ذا الخزانة الخشبية .. وكانت نافذتها ، كما أخبرتك من قبل ، عريضة تكفى لمرور أى شخص منها ، فطرأ على فكرى أنه يدبر رحلة أخرى من رحلات منتصف الليل ، لا يريد أن نشك فى أمرها او نعرفها ..

قلت لنفسى : « أيكون غولا أم من مصاصى الدماء ؟ » .. فقد سبق ان قرأت عن مثل هذه الشياطين الفظيعة المتجسدة ..

ولكنى ما لبثت أن ركزت تفكيرى فى تذكر كيف تعهدته فى طفولته ، واشرفت عليه وهو ينمو الى طور الشباب ، وكيف لازمته خلال حياته كلها تقريبا ، فبدا لى من السخف أن أستسلم لمثل هذا الشعور بالفزع ! .. ولكن الوساوس والخرافات عادت تهمس لى ، بينما كان النعاس يقود خطاى

نحو اللاشعورية : « ولكن من أين اتي ذلك الشيء الأسمر، الذى آواه رجل طيب - ذات يوم - فحاق به وبأسرته الدمار ؟ .. » وبدأت ، فيما يشبه الحلم ، أكد ذهنى فى تخيل من يصلح لأن يكون والده ، أو والدته ! .. ثم رحت أستعيد تأملات اليقظة ، واستعرض حياته كلها مرة أخرى ، مع اختلافات قاتمة .. وأخيرا صورت موته وجنازته التى لا أذكر عنها الا ما انتابنا من الضيق عندما أردنا ان نملى العبارة التى تكتب على قبره ، وكيف استشرت حفار القبور فى ذلك .. لم يكن له اسم ، ولم نكن نعرف عمره ، فاضطررنا الى أن نقنع بكلمة واحدة هى « هيثكليف » .. وقد صح حلمى فى ذلك ، لأن هذا ما حدث فعلا .. ولو دخلت الى المقبرة لما قرأت على شاهد قبره الا هذه الكلمة ، وتاريخ موته ..

وأعاد لى بزوغ الفجر هدوئى واتزانى، فنهضت وخرجت الى الحديقة ، بمجرد أن أصبحت الرؤية ممكنة ، لأتحقق مما اذا كانت هناك آثار أقدام تحت نافذته .. ولكنى لم أجد شيئا منها .. فقلت لنفسى : « لقد بقى فى المنزل ، وسوف يكون بخير اليوم » .. وأعددت طعام الافطار لأهل المنزل جميعا ، كعادتى كل يوم ، ولكنى طلبت الى هيرتون وكاثرين أن يتناولا افطارهما قبل أن ينزل السيد ، لأنه تأخر فى النوم .. ففضلا أن يتناولاه فى الحديقة تحت الأشجار ، وزودتهما بمائدة صغيرة حتى يجلسا فى راحة ..

فلما عدت الى المنزل وجدت مستر هيثكليف فى الطابق السفلي .. كان يتحدث مع جوزيف عن بعض شئون الزراعة ، ويصدر أوامر واضحة دقيقة فى الأمر الذى كانا يبحثانه .. ولكنه كان يتكلم فى عجلة ، ويدير رأسه جانبا باستمرار ، وفى محياه طابع ذلك الانفعال نفسه ، بل لقد ازداد مغالاة فيه .. فلما غادر جوزيف الحجرة ، اتخذ

مجلسه فى المكان الذى يفضله عادة ، وعندئذ وضعت أمامه قدحا كبيرا من القهوة .. فأدناه اليه ، ثم مد ذراعيه فوق المائدة، ونظر الى الجدار المقابل وهو يتفرس – كما حسبت – فى قسم معين منه ، الى الأعلى والى الأسفل ، بعينين قلقتين لامعتين ، وفى اهتمام ولهفة بحيث كف عن التنفس أكثر من نصف دقيقة !

فدفعت الى يده قطعة من الخبز ، قائلة :

– هيا .. خذ هذه فكلها، واشرب قهوتك وهى ساخنة ، فقد انتظرت الافطار ما يقرب من الساعة ..

ولكنه لم ينتبه الى .. ومع ذلك كان يبتسم باستمرار .. وودت لو اننى أراه يصر على أسنانه ويكشر عن انيابه، فذلك خير من هذه الابتسامة .. وعندئذ صحت :

– مستر هيثكليف ! .. سيدى ! .. بحق السماء لا تحملق بأنظارك هكذا كأنك ترى مشهدا خارقا للطبيعة ..

فأجاب :

– وبحق السماء لا تصرخى هكذا عاليا ! .. انظرى حواليك وخبرينى هل نحن وحدنا ؟

– طبعا ! .. اننا وحدنا طبعا !

ومع ذلك فاننى أطعته بحركة غير ارادية ، كما لو كنت غير واثقة تماما .. وعندئذ أزاح أوانى الافطار بحركة من يده وافسح بينها مكانا أمامه ، ثم مال الى الأمام ليمعن النظر فى مزيد من الراحة واليسر ..

وفى تلك اللحظة تبينت انه لم يكن ينظر الى الجدار ..

لأننى عندما ركزت انتباهى فيه وحده ، كان يبدو تماما كأنما يحدق النظر فى شيء يبعد عنه بنحو ياردتين .. ومهما يكن من أمر ذلك الشيء ، فانه كان فيما يظهر ، ينقل اليه السرور والألم معا، بأقصى ما فى كليهما من سحر.. أو على الأقل هذا ما كانت توحى به تعبيرات وجهه التى تنبض بالعذاب واللوعة والنشوة معا ! .. ولم يكن ذلك الشيء الذى يتخيله ثابتا .. فقد كانت كلتا عينيه تتبعانه فى مثابرة لا تكل ، وكانتا حتى وهو يتحدث الى ، لا تتحولان عنه ولا تطرفان .. وعبثا كنت أذكره بزهده الطويل عن الطعام .. فكلما استجاب لضراعتى مرة ، وتحرك ليمس شيئا منه ، ومد يده ليتناول قطعة من الخبز ، كانت أصابعه تنقبض وتتقلص قبل أن يصل اليها ، وتظل كذلك ممدودة فوق المائدة ، غافلة عن هدفها ..

وظللت جالسة ، مثالا للصبر والأناة ، أحاول بين وقت وآخر ان أثير انتباهه ، وأنتزعه من تأملاته التى تستغرقه كله ، حتى ضاق بى ذرعا ، ونهض متململا ليسألنى لماذا لا أسمح له بأن يتناول طعامه على مهل ؟ .. ثم ليقول لى أن لا حاجة بى الى الانتظار معه فى المرة القادمة ، بل على أن أعد المائدة وانصرف .. وما كاد ينطق بهذه الكلمات حتى غادر المنزل ، ومضى يسير فى ممر الحديقة متلكئا ، حتى اختفى عن الأنظار وهو يجتاز البوابة ..

ومضت بى الساعات تزحف فى قلق وانشغال ، وحلت ليلة أخرى .. ومكثت ساهرة ، فلم اذهب الى حجرتى لأنال قسطى من الراحة الا فى وقت متأخر .. وعندئذ لم يطرق النوم عينى .. أما هو فقد عاد بعد منتصف الليل ، ولكنه بدلا من أن يأوى الى حجرته ، أوصد على نفسه باب الحجرة السفلى .. فرحت أنصت وارهف السمع واتململ فى الفراش ، وأخيرا قمت فارتديت ثيابى وهبطت الى الطابق

الأرض .. فقد كان من المضنى أن أظل راقدة ارهق مخى بمئات من الشكوك والأوهام .. وتبينت خطوات مستر هيثكليف وهو يذرع الحجرة فى قلق واضطراب ، كأنما كان يقيس البلاط .. وكان كثيرا ما يخرق السكون بتنهد عميق أشبه بالأنين .. وكان كذلك يتمتم بكلمات متقطعة لم أستطع أن أميز منها الا اسم كاترين مقترنا بألفاظ وحشية تنم على الاعزاز والتدليل أو الألم .. وكان ينطق بها كأنما يخاطب شخصا حاضرا أمامه ، فى صوت خافت ولهفة مضطرمة ، كأنما يعتصرها من أعماق قلبه .. ولم أجد الجرأة على اقتحام الحجرة مباشرة ، ولكنى كنت أود أن أنتزعه من احلامه ، فمضيت الى المطبخ ونفست عن صدرى بتقليب نيران المدفأة وازالة رمادها .. وقد جذبه ذلك بأسرع مما توقعت ، فقد فتح الباب على الفور ، وقال :

ــ تعالى الى هنا يا نللى ، وأحضرى معك ضوءا !.. هل نحن فى الصباح الآن ؟

ــ انها تدق الرابعة .. أتريد شمعة لتصعد بها الى حجرتك ؟ .. كان ينبغى أن تشعل واحدة من نار الموقد ..

ــ كلا .. لست أريد أن أصعد الى حجرتى .. ادخلى ، واشعلى لى نارا ، وافعلى أى شىء هنا فى الحجرة ..

ــ ولكن يجب أن انفخ على الفحم المتقد أولا قبل أن استطيع احضار شىء منه الى هناك ..

ثم حملت مقعدا ، وأخذت المنفاخ وجلست أمام النار .. أما هو فكان فى هذه الأثناء يهيم على وجهه ذهابا وجيئة وفى حالة تقرب من الذهول .. وكانت تنهداته الثقيلة تتتابع واحدة فى اثر الأخرى بحيث لا تكاد تترك بينها فراغا للتنفس .. وما لبث أن قال :

— عندما يطلع النهار سوف أبعث فى طلب جرين .. فانى أريد أن استوضحه بعض الأمور القانونية بينما أنا قادر على التفكير فى مثل هذه الأمور ، وبينما أستطيع التصرف فى هدوء .. اننى لم أكتب وصيتى بعد ، ولم أقرر حتى الآن كيف أترك ثروتى .. وشد ما وددت لو اننى أستطيع محوها من على ظهر الأرض !

فتدخلت قائلة :

— اننى ما كنت لأقول ذلك يا مستر هيثكليف .. دع أمر وصيتك فترة أخرى ، فما زال أمامك ما يكفى من الوقت للتكفير عن مظالمك الكثيرة ! .. وما توقعت البتة أن تنهار أعصابك الى هذا الحد .. نعم ، فانها الآن قد بلغت غاية الانهيار .. ويكاد يكون ذلك كله راجعا الى غلطتك ، فان الطريقة التى قضيت بها الأيام الثلاثة الأخيرة خليقة بأن تصرع الجبابرة .. فهلا تناولت بعض الطعام ، ونلت شيئا من الراحة ؟ .. يكفيك أن تنظر الى نفسك فى المرآة لترى مبلغ حاجتك الى كليهما .. لقد برزت عظام وجنتيك ، وأصبحت عيناك فى لون لدماء ، أشبه بشخص يوشك على الموت جوعا ويوشك على فقد بصره سهدا ..

فأجاب :

— انها ليست غلطتى أننى لا استطيع أن آكل او استريح ، وثقى أن ذلك ليس خطة موضوعة ارمى بها الى هدف معين .. فسوف آكل واستريح عندما أجد ذلك فى قدرتى .. ولكنك كمن يأمر رجلا يصارع الأمواج بأن يرتاح وهو على قيد ذراع من الشاطىء ! .. يجب أن أبلغه أولا ، ثم استريح بعدئذ ! .. حسنا .. دعينا من مستر جرين الآن ! .. أما التكفير عن جورى وعسفى ، فانى لم اقترف جورا أو

تعسفا ، وليس لدى ما أندم عليه أو اكفر عنه ! .. اننى سعيد غاية السعادة ، ومع ذلك فاننى لست سعيدا الى الحد الذى يكفينى !.. ان هناء روحى هو الذى يقتل جسدى، ولكنه مع ذلك لا يشبع روحى نفسها !

فصحت به :

ـ سعيد يا سيدى ؟ .. ما أغربها من سعادة ! .. ولكنك اذا رضيت بأن تستمع لى بغير غضب ، فربما استطعت أن أسدى اليك نصيحة تجعلك أعظم سعادة ..

فسألنى :

ـ ما هى ؟ .. هاتيها ..

ـ انك تعلم تماما يا مستر هيثكليف انك منذ أن كنت فى الثالثة عشرة من عمرك ، كنت تعيش حياة ملؤها الأثرة ، مجردة من التقى والتدين ، بل لعلك لم تمسك فى يدك كتابا مقدسا طوال هذه المدة .. ولا بد أن تكون قد نسيت ما فيه ، وربما لا تجد الآن فسحة من الوقت لدراسته بنفسك .. فهل يضيرك أن تبعث فى طلب أحد رجال الدين ـ من اى مذهب ، فان ذلك ليس بذى بال ـ ليشرح لك أوامره ونواهيه ، ويريك الى أى حد شردت بعيدا عن أحكامه ، وكيف أصبحت بذلك غير خليق بجنة السماء ، ما لم يحدث تغيير فى نفسك قبل أن تموت ؟

ـ ان شكرى لك يا نللى يحجب غضبى منك .. لأنك ذكرتنى بالطريقة التى أريد ان أدفن بها ! .. اريد ان يحمل جثمانى الى المقبرة فى المساء ، ويمكن لك ولهيرتون أن تصحبانى اليها ، اذا شئتما ! .. وعليك أن تحرصى ، بصفة خاصة ، على اطاعة حفار القبور لتعليماتى بشأن التابوتين ! .. وما من

حاجة لحضور أحد رجال الدين ، أو الصلاة على قبرى ! ..
فانى أقول لك اننى اوشكت على بلوغ جنتى .. أما جنة الآخرين فلا أقيم لها وزنا ولا اشتهيها !

فقلت وقد فجعنى كفره وعدم اكتراثه :

ـ وهب انك ثابرت على صومك وعنادك ، مما ادى الى موتك ، ورفضوا أن يدفنوك فى فناء الكنيسة ؟ .. فكيف ترضى عن ذلك ؟

ـ انهم لن يفعلوا ذلك ! .. ولو فعلوه ، فيجب أن تتولى نقلى خفية ! .. أما اذا أهملت ذلك ، فسوف يثبت لك ، عمليا ، أن الموتى لا يتلاشون نهائيا !

وما كاد يسمع أفراد العائلة الآخرين وقد دبت حركتهم فى البيت ، حتى انسحب الى عرينه .. وعندئذ تنفست الصعداء ! .. ولكنه أتى الى المطبخ ثانية بعد الظهر ، بينما كان جوزيف وهيرتون غائبين فى عملهما ، وطلب منى ، وهو يرمقنى بنظرات وحشية ، أن أذهب لأجلس معه فى حجرة الجلوس .. كان يريد أى شخص معه .. ولكنى أبيت ، وافهمته صراحة أن حديثه ومسلكه الغريبين قد أفزعانى ، وانه ليس بى من رغبة ، أو أعصاب ، لأكون رفيقته وحدنا ..

فأطلق ضحكته البشعة ، وقال :

ـ أحسبك تظنيننى شيطانا .. شيئا فظيعا لا يليق لأن يعيش تحت سقف بيت محترم ..

ثم تحول الى كاثرين ، التى كانت معى ، والتى احتمت خلفى عند اقترابه ، واستطرد يقول فيما يشبه التهكم :

ـ هل لك أن تأتى ، يا دجاجتى ! .. اننى لن أوذيك ..

كلا ؟ .. لقد جعلت نفسي فى نظرك أسوأ من الشيطان اذن ! .. جسنا .. أن هناك واحدة لا تنفر من صحبتي .. يا الهى ! .. انها خالية من الرحمة ، لا تلين ! .. يا للعنة ! .. ان ذلك مما لا يطيقه انسان من لحم ودم ، حتى أنا !

ولم يعد ينشد رفقة أحد بعد ذلك ، وعند الغسق أوى الى حجرته .. وكنا نسمعه أثناء الليـلة بطولها ، وحتى الصباح المتأخر ، لا يكف عن الأنين أو يكلم نفسه .. فاستبد القلق بهيرتون ، وأراد أن يدخل عليه حجرته ، ولكنى طلبت اليه أن يذهب لاحضار الطبيب كينيث ، ليدخل اليه ويفحصه .. فلمـا أتى الطبيب ، رحت أتوسل اليه أن يسـمح لنا بالدخول ، وحاولت فتح الباب ، فوجدته موصداً .. وعندئذ انطلق هيثكليف يسبنا ويلعننا ويقول انه أحسن حالا ، ويريد أن ندعه وشأنه .. وهكذا عاد الطبيب من حيث أتى ..

وكانت الليلة التالية غزيرة المطر .. والواقع أنه ظل ينهمر حتى مطلع الفجر .. فلما مضيت أقوم بجولتى حول المنزل كعادتى كل صباح ، وجدت نافذة حجرة السيد مفتوحة ، والهواء يطوح مصاريعها ، والمطر يتدفق الى الداخل .. فقلت لنفسي انه لا يمكن أن يكون فى فراشه .. فان هذه السيول خليقة بأن تغرقه حتى تبلل عظامه .. ولا بد أن يكون قد استيقظ من نومه ، أو انه غادر المنزل .. ولـكنى لن أثير ضجة أو جلبة ، بل سوف اذهب فى جرأة لأرى الحقيقـة بنفسى ..

وأفلحت فى الدخول الى الحجرة بمعونة مفتاح آخر ، ثم أسرعت لأزيح الألواح الخشبية لخزانة الفراش ، لأن الحجرة نفسها كانت خالية ، فدفعتها جانبـا فى عجلة ولهفـة ، واسترقت النظر الى داخلها ..

كان مستر هيثكليف هناك ، راقدا على ظهره .. والتقت عيناه بعينى فاذا فيهما نظرة ثاقبة ضارية .. فأجفلت .. وعندئذ بدا كأنه يبتسم .. ولم يكن فى وسعى أن أحسبه ميتا ، ولكن المطر كان يغمر وجهه وعنقه ، وكانت أغطية الفراش تقطر ماء ، وكان هو جامدا بلا حراك ! .. وكان مصراع النافذة ، والهواء يطوحه هنا وهناك ، قد كشط جلد احدى يديه ، وكانت مستقرة على افريز النافذة ، ولكنى لم أر أثرا للدماء حول الجلد الممزق ، فلما لمسته بأصابعى ، لم يعد ثمة مجال للشك .. كان ميتا ، متيبسا !

ففتحت مصراعى النافذة وثبتهما ، ورحت أمشط شعره الأسود الطويل الى الخلف ، لأزيحه عن جبهته .. ثم حاولت أن أغمض عينيه لأطفىء — ان استطعت — تلك النظرة الثاقبة المخيفة التى تنم عن الرضى والابتهاج ، وكأنها تنبض بالحياة ، قبل أن يراها أحد غيرى .. ولكنها لم تلن تحت اصابعى ، ولم تستجب لى ، بل كانت تبدو كأنما تهزأ بمحاولاتى ! .. بل ان شفتيه المنفرجتين ، وأسنانه الحادة البيضاء ، كانت كأنما تهزأ بى هى الأخرى .. وعندئذ تملكتنى نوبة أخرى من الخور والجزع ، فصحت أستنجد بجوزيف ..

وصعد جوزيف الدرج فى جلبة وضوضاء ، وهو يجر قدميه جرا .. ولكنه رفض فى أصرار أن يكون له به شأن أو يمد اليه يدا ، وصاح :

— لقد خطف الشيطان روحه ، فليتول أمر جيفته أيضا ! .. فما يعنينى ذلك فى شىء .. أف ! .. انه يبدو شريرا حتى فى موته !

وكشر العجوز الأثيم عن نواجذه فى سخرية واستهزاء ، وظننته يهم بأن يطوف حول الفراش راقصا ، ولكنه ما لبث

ان استعاد سكينته ، وجثا على ركبتيه ، ورفع يديه الى السماء ، ثم راح يتلو صلوات الشكر لله على استعادة سيد الدار الشرعى حقوقه الضائعة ، وتراثه التليد ..

أما أنا فقد روعتنى وشلت حواسى تلك الحادثة الرهيبة .. غير أن ذاكرتى لم تملك الا أن تعود الى الأيام الخوالي فى نوع من الحزن الممض .. ولكن هيرتون المسكين ، وكان أكثرنا استهدافا للظلم ، كان الوحيد الذى عانى ألما حقيقيا .. فقد قضى الليل بطوله جالسا الى جوار الجثة ، يبكى فى جزع مرير .. وكان يضغط على يده ، ويقبل ذلك الوجه الوحشى الساخر الذى كان كل انسان غيره يجفل من مرآه ، ويندبه بذلك الحزن القوى الذى ينبع بطبيعة الحال من قلب كريم ، مهما كان قاسيا كالصلب المطروق ..

وحار الطبيب كينيث فى تقرير سبب موت السيد .. وأخفيت تلك الحقيقة الواقعة وهى انه لبث أربعة أيام لم يذق خلالها شيئا ، خشية أن يقودنا ذلك الى متاعب لا داعى لها .. ولكننى كنت مقتنعة أن صيامه كان نتيجة لمرضه الغريب ، لا سببا له ..

وقد قمنا بدفنه ، لدهشة أهل الجيرة جميعا واستنكارهم ، حسب مشيئته .. فلم يحضر دفنه سواى ، وسوى هيرتون ، وحفار القبور ، وستة رجال كانوا يحملون النعش .. وقد مضى الرجال الستة لشأنهم بعد أن أنزلوا التابوت فى القبر ، ولكننا بقينا حتى أهيل عليه التراب .. وكانت الدموع تغمر وجه هيرتون عندما راح يخلع جذور العشب ويغرسها فوق قبره – وهى الآن يانعة خضراء كتلك التى تغطى القبرين الآخرين – وشد ما أرجو ان يكون ساكنه ينام نوما عميقا كساكنيهما ..

ولكنك اذا سألت الريفيين فسوف يقسمون على الكتاب المقدس أنه يسير على قدميه ! .. فهناك من يتحدثون عن لقائهم به بالقرب من الكنيسة ، أو فوق البرارى ، بل حتى فى هذا المنزل ! .. سوف تقول انها خرافة سخيفة ، وكذلك أقول انا .,. ومع ذلك فان ذلك الشيخ الجالس بجوار المدفأة يؤكد انه رأى الاثنين معا يتطلعان من نافذة حجرته فى كل ليلة ممطرة منذ وفاته !

ثم اننى وقع لى أمر غريب منذ شهر تقريبا .. كنت ذاهبة الى « الجرانج » ذات مساء — وكانت أمسية مظلمة تنذر بالرعد والمطر — فما أن بلغت منحنى الطريق القادم من « المرتفعات » حتى قابلت صبيا صغيرا أمامه شاة وحملان .. كان يبكى بكاء مروعا ، فحسبت الحملين يشاكسانه ولا يستجيبان لقيادته .. فسألته :

— ماذا هنالك أيها الرجل الصغير ؟

فغمغم يقول وهو ينفطر باكيا :

— هناك هيثكليف وامرأة معه ، تحت تلك الأكمة ..

ولست أجرؤ على المرور بهما ..

ونظرت ، فلم أر شيئا .. ولكن لا هو ، ولا الخراف ، رضى أن يتحرك خطوة واحدة الى الأمام .. فأمرته بأن يسلك طريقا آخر أسفل ذلك الطريق .. والأرجح انه كان يتصور وجود الأشباح من كثرة تفكيره فيها ، وهو يقطع البرارى وحده ، من كثرة ذلك الهراء الذى يسمع والديه ورفاقه يرددونه .. ومع ذلك فاننى ، الآن ، لا أحب الخروج فى الليل !.. ولا أحب أن اترك وحدى فى هذا المنزل الكئيب !.. ان الأمر ليس بيدى ، ولا حيلة لى فيه ! .. وسوف أسعد

كثيرا عندما يتركان هذا المنزل ويذهبان للاقامة فى «الجرانج» فقلت :

ـ هل ينويان الذهاب الى الجرانج اذن ؟

فأجابت مسز دين :

ـ نعم ، بمجرد زواجهما فى أول العام الجديد ..

ـ ومن الذى سيقيم هنا اذن ؟

ـ سوف يبقى جوزيف للعناية بالمنزل ، وربما بقى معه أحد الغلمان ليكون رفيقا له .. وسوف يعيشان فى المطبخ وتوصد باقى حجرات المنزل ..

فغمغمت قائلا :

ـ نعم .. ليمرح فيه أى عــدد من الأشباح تطيب له الاقامة به !

ولكن نللى هزت رأسها قائلة :

ـ كلا يا مستر لوكوود ! .. اننى أعتقد أن الموتى يرقدون فى سلام ! .. ولكن ليس من الصواب ان يتحدث المرء عنهم فى طيش ورعونة !

وفى تلك اللحظة انفتحت بوابة الحديقة فى دفعة قوية .. فقد كان الصاحبان عائدين من جولتهما .. فقلت مزمجرا ، بينما كنت أرقب من خلال النافذة اقترابهما :

ـ ولكن هذين لا يخافان شيئا .. انهما ـ معا ـ خليقان بأن يواجها الشيطان وعصبته جميعا !

وفيما كانا يخطوان الى سلم الباب ، ثم يتمهلان ليلقيا نظرة أخيرة على القمر الساطع ـ أو على الأصح لينظر كل منهما الى الآخر ـ شعرت بدافع لا يقاوم يستحثنى ثانية على تجنب لقائهما .. فدسست شيئا للذكرى فى يد مسز دين ، وتسللت ـ غير عابىء باحتجاجها على فظاظتى ـ الى المطبخ بينما كانا يهمان بالدخول من باب حجرة الاستقبال .. ولعل ذلك كان خليقا بأن يؤيد رأى جوزيف فى أمر مغامرات زميلته مسز دين ، لولا انه لحسن الحظ قد عرف اننى شخص فاضل محترم ، من ذلك الرنين الجميل لقطعة الذهب التى ألقيتها عند قدميه ..

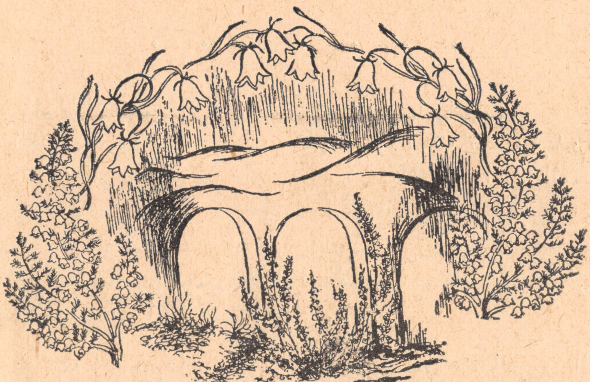
• • • • • • • • •

ولقد طال مسيرى نحو منزلى ، بسبب تحولى نحو الطريق الى الكنيسة .. فلما بلغت مكانها ، ووقفت تحت جدرانها ، تبينت أن الخراب قد تقدم بها شأوا بعيدا فى السبعة الشهور الماضية .. فكم من نافذة كانت تبدو فجوة سوداء خالية من الزجاج ، وكم من أحجار برزت من مواضعها ، وألواح انفلتت من أماكنها فى الأسقف ، لتصبح وشيكا فريسة سهلة لعواصف الخريف المقبلة ..

وبحثت ، وسرعان ما عثرت على شواهد القبور الثلاثة القائمة على المنحدر ملاصقة للبرارى .. كان أوسطها داكن اللون يعلو فوقه العشب حتى يوشك أن يغطيه كله .. أما شاهد قبر ادجار لينتون فان الطحالب والحشائش كانت تزحف عند أعتابه .. بينما كان شاهد قبر هيثكليف لا يزال عاريا مجردا ..

وتلكأت حولها ، تحت تلك السماء الصافية ، ورحت أرقب الفراشات وهى ترفرف بأجنحتها بين الهيش والحشائش ، وأصغى الى همسات الريح الرقيقة وأنفاسها بين العشب ، وأعجب كيف يمكن لأى امرىء أن يتصور نومة قلقة مضطربة لأولئك الذين ينامون فى هذه الأرض الهادئة الساجية ..

« تمت »



اذا أردت تجليد الأجزاء الثلاثة

روعي فى ترقيم صفحات هذا الجزء ، ان تبدأ أرقام الصفحات من حيث انتهى ترقيم الجزء الثانى ، حتى يتسنى لمن يرغب فى جمع أجزاء هذه القصة فى مجلد واحد ، أن يجد ارقام صفحات المجلد بأسره متسلسلة .. وكل ماعليك هو أن تنزع الورقات الثلاث الأولى ، والورقة الأخيرة من كل من الجزءين الثانى والثالث ، والورقة الأخيرة من الجزء الأول، وبذلك تتتابع أرقام الصفحات بانتظام .


كتابي
الكتاب الشهري لتلخيص الكتب العالمية
الجحيم هو الناس!
جان بول سارتر
نساء الهوى
برنارد شو
فولتير العاشق
ليالي البلقان
حياة توماس مان
الشمس تشرق ثانية
ارنست هيمنجواى
حياة البرت شفايتزر
ابراهام لنكولن في حياته الخاصة
أقوى من المال!
جان أنوي
نماذج من النساء
ارسكين كالدويل
قصة حياة فنون ادلون (برلين)
يحشد لك في أعداده القادمة
مجموعة ضخمة من أروع الكتب الحديثة
التي جلبها لك من عواصم أوربا وآسيا
.. فيفتح أمام ذهنك آفاق الثقافة
العالمية على مصراعيها .. ويكفل لك
وللأولاد زادا عقليا وغذاء وجدانيا
لم يسبق لهما مثيل باللغة العربية.
احرص على اقتناء كل عدد جديد
واطلب الأعداد السابقة من الإدارة
١٤ شارع ٢٦ يوليو (عمارة الجندول) - ت: ٥٩٥٥٦
نساء ومآسي في ساحة العدالة
الغريب
البير كامي
حياة "فلمنج"
مكتشف البنسلين
يصدره
حلمي مراد
في كل عدد من كتابي: سيرة حياة شخصية عالمية + قصة طويلة + كتاب في علم النفس
+ مسرحية ملخصة + محاكمة جنائية أو قصة تاريخية + كتاب عزلي ملخص ... الخ ..
علاوة على باب المحرر: "رأيت وسمعت لك في ..."